

العراق بعد الحشد العسكري I: المشهد السني الجديد

تقرير الشرق الأوسط رقم 74 – 30 نيسان (أبريل) 2008

جدول المحتويات

i.....	ملخص تنفيذي وتوصيات
1.....	I. مقدمة
1.....	II. الانقسامات الداخلية في القاعدة وأثرها على هزيمتها
1.....	أ. الهجوم الأميركي والتوسع المفرط للقاعدة في العراق
4.....	ب. الانتشاق بين القاعدة في العراق والمجموعات المسلحة
8.....	III. عودة العشائر إلى الصدارة
8.....	أ. من صدام إلى الاحتلال
9.....	ب. الصحوات العشائرية
10.....	ج. فهم ظاهرة الصحوات
14.....	IV. وضع الجماعات المسلحة السنية
14.....	أ. انتكاسة في حظوظ الجماعات المسلحة
17.....	ب. المعارضة المسلحة تلقت ضربة قوية لكنها لم تهزم
20.....	ج. هل يمكن للولايات المتحدة ومجموعات المعارضة المسلحة أن تتفاوض؟
24.....	V. خاتمة
	ملاحق
25.....	أ. خارطة العراق

العراق بعد الحشد العسكري I: المشهد السني الجديد

ملخص تنفيذي وتوصيات

القاعدة الذي نتج عنه ازدياد عدد القوات الأميركية. وفي كلتا الحالتين أظهرت القوات الأميركية فهماً أكثر عمقاً للتوترات الموجودة وخطوط التماس داخل الطائفة السنية. وعلى وجه العموم، تمكنت الحملة العسكرية من تهدئة المناطق التي كانت قد أصبحت عنيفة وعصية على الدخول بشكل خاص، مثل الأنبار وعدد من أحياء بغداد، وبشكل أساسي أوقفت الحرب الطائفية.

غير أن هذه الانتصارات بمفردها، ودون إستراتيجية شاملة للعراق والمنطقة، لا يمكن أن تتحول إلى نجاحات دائمة، فالمزاج في أوساط السنة يمكن أن يتغير. كما أن الانقلاب على القاعدة في العراق ليس بالضرورة نهاية الحكاية. في حين وجد بعض زعماء العشائر، الذين باتوا دون سند بعد سقوط صدام، في الولايات المتحدة راعياً جديداً مستعداً وقادراً على توفير الموارد، فإن هذا لا يساوي توجهاً حقيقياً ودائماً لدى السنة العرب لقبول العملية السياسية. بالنسبة لهؤلاء الزعماء العشائريين، كما بالنسبة للمعارضة المسلحة، فإن هذا تحالف تكتيكي، بشكل رئيسي، تم تشكيله لمواجهة عدو مباشر (القاعدة في العراق) أو العدو المركزي (إيران). لقد كانت كافة التسويات بينهم وبين الولايات المتحدة وليس بينهم وبين حكومتهم وهذه المستويات تنذر بالتفكك إذا لم توافق الأحزاب الحاكمة على درجة أكبر من تقاسم السلطة وإذا بات السنة العرب مقتنعين بأن الولايات المتحدة غير مستعدة للوقوف معهم ضد إيران أو حلفائها في العراق. آنذ ستعود مواجهة العدو الأكبر (المليشيات الشيعية أو الحكومة التي يسيطر عليها الشيعة) لتحتل موقع الصدارة على جدول أولياتهم.

لقد تم إضعاف القوى التي تقاوم الولايات المتحدة لكنها لم تقهر. وتضائل التمرد إلى حجم تمكن معالجته؛ وبعد أن اعتقدت المعارضة المسلحة أنها اقتربت من تحقيق النصر، فإنها تبدو مثلهمة الآن للتفاوض مع الولايات المتحدة. رغم ذلك، فإن ما تبقى يشكل مصدراً دائماً للعنف وعدم الاستقرار يمكن أن يعود للنشاط إذا ترنحت العملية السياسية أو فشلت تجربة "أبناء العراق". حتى القاعدة في العراق لا يمكن هزيمتها من خلال الوسائل العسكرية الأميركية فقط. في حين تم إضعاف المنظمة إلى درجة كبيرة وتراجعت قدراتها العملياتية بشكل كبير، فإن جيوبها العميقة، وبنيتها المتغيرة وجاذبيتها الأيديولوجية للعديد من الشباب العراقيين تعني أنها لن تهزم بشكل نهائي. الحل الدائم الوحيد هو إقامة دولة تنتشر أجهزتها الاستخباراتية وأجهزة فرض القانون فيها على كافة أراضيها، وتوفر في نفس الوقت فرصاً اجتماعية - اقتصادية للأجيال الشابة. تعاني المقاربة الأميركية من عقبة أخرى. إنها تدعم مجموعة من اللاعبين المحليين الذين يعملون خارج نطاق الدولة

هذا التقرير الأول من تقريرين حول العراق بعد الحشد تنتشرهما مجموعة الأزمات الدولية. ويحتوي التقريران نفس الملخص التنفيذي والتوصيات. يحلل الجزء الأول التغييرات التي طرأت على المشهد السني، في حين يحلل الجزء الثاني حالة التقدم السياسي.

رغم كل العوائق، أسهم الحشد العسكري الأميركي في تخفيف حدة العنف بشكل ملحوظ. ولا ينبغي التقليل من أهمية إنجازاته. لكن، وفي غياب التغييرات السياسية الجوهرية في العراق والتي كان يفترض بالحشد أن يسهل إحداثها، فإن هذه النجاحات ستبقى غير كافية، وهشة، وقابلة للعكس. يشكل الهدوء الأكثر من نسبي فرصة للولايات المتحدة لتركز على مكونين غائبين: الضغط على الحكومة العراقية كي تتخذ خطوات تأخرت في اتخاذها أصلاً للتوصل إلى تسوية سياسية، وتغيير المناخ الإقليمي بحيث يستعمل جيران العراق نفوذهم لتشجيع تلك التسوية وضمان استمراريتها. كما يتضح من هذين التقريرين فإن هذا يتطلب التوقف عن تقديم الدعم العسكري غير المشروط للحكومة العراقية؛ والاتصال بما تبقى من المعارضة المسلحة؛ واستعمال نفوذها لتشجيع إجراء انتخابات محلية حرة وعادلة، والتقدم نحو حوار وطني واسع والتوصل إلى ميثاق وطني؛ والانخراط في دبلوماسية حقيقية مع جيران العراق، بما في ذلك إيران وسورية.

لقد أسهمت عدة عوامل في الحد من وتيرة العنف. لقد استعاد الحشد في بعض الأحيان من سلسلة من التحولات السياسية - العسكرية التي أثرت في الطائفتين السنية والشيعية، وفي أحيان أخرى كان الحشد هو الذي شجع هذه التحولات بل أدى إلى نشوئها في المقام الأول. لكن ما من شك في أن القادة الأميركيين الميدانيين أظهروا قدراً كبيراً من الدراية والمعرفة بالديناميات المحلية على نحو غير مسبق خلال صراع تميّز منذ البداية بسياسات أميركية بنيت على افتراضات مضللة وشاب تنفيذها الكثير من الخلل. لقد أعطت الثورة المفاهيمية داخل القيادة العسكرية القوات الأميركية القدرة على تنفيذ سياسات جديدة والاستفادة من الديناميات الجديدة. لو بقيت القيادة غارقة في المفاهيم السابقة، لكان الوضع اليوم أكثر قتامة، رغم التطورات الإيجابية على الأرض.

يتمثل أحد التغييرات الأكثر أهمية في إعادة اصطاف العناصر القبلية في منطقة الأنبار، وتشكيل ما يعرف بالصحات، وما يطلق عليه بشكل جمعي "أبناء العراق". ويعود ذلك إلى حد بعيد إلى تزايد الاحتكاك والاختلاف حول التكتيكات الوحشية التي تنتهجها القاعدة في العراق، وإعلان قيام دولة إسلامية وتصعيد الهجمات على المواطنين العاديين. إلا أن القرارات التي اتخذتها المعارضة المسلحة والعشائر استفادت من الضغط العسكري المتزايد على

هذه الأمور تزداد وضوحاً بشكل متزايد. أولاً، لا يمكن حل القضايا المركزية في الصراع السياسي على نحو منفرد وبشكل منعاقب. ثانياً، إن البنية الحاكمة في الوقت الراهن لا تريد، ولا هي قادرة، على الاستفادة من الحشد للتوصل إلى اتفاق حول القضايا الجوهرية. ثالثاً، دون تعاون الأطراف الإقليمية، لن يكون التقدم مستداماً، حيث تسعى المجموعات غير الراضية عن الاتفاق للحصول على المساعدة من الدول المجاورة لتعزيز مصالحها. كل ذلك يوضح بأن المقاربة المجزأة المتبعة حالياً للتوصل إلى تسوية ينبغي أن تستبدل بجهود للتوصل إلى اتفاق موسع يعالج موضوع الفيدرالية، والنفط، والحدود الداخلية؛ ويشجع المصالحة/التوافق؛ ويضمن حصول انتخابات محلية ووطنية كوسيلة لتجديد وتوسيع الطبقة السياسية. كما يوضح مرة أخرى الحاجة إلى مشاركة الولايات المتحدة في مفاوضات حقيقية مع المعارضة المسلحة وإلى دبلوماسية إقليمية نشطة للتوصل إلى اتفاق حول قواعد اللعبة بالنسبة للأطراف الخارجية في العراق.

في الولايات المتحدة تركّز جزء كبير من المناظرة حول ما إذا كان يتوجب المحافظة على القوات أو سحبها. إلا أن هذا يطرح السؤال بطريقة خاطئة وبالتالي يحصل على أجوبة مضللة. ينبغي أن تكون المقارنة، بدلاً من ذلك، بين اتباع الولايات المتحدة لسياسة من شأنها وضع أسس مؤسسات شرعية وفعالة، وقواعد للعبة، أن تقلص الأكاليف المترتبة عليها هي نفسها، وعلى الشعب العراقي، وعلى الاستقرار الإقليمي، وبين الانسحاب الذي ينبغي أن يحدث عاجلاً أم آجلاً - أو أنها ببساطة تؤجل سيناريو ينهار من خلاله العراق ويتحول إلى دولة فاشلة ومجزأة، وعنق طويل الأمد ومتعدد المستويات إضافة إلى زيادة التدخل الأجنبي.

لقد أسهم الحشد العسكري دون شك في سلسلة من النجاحات الهامة. غير أن السؤال هو: وماذا بعد؟ ما هو الهدف الأسمى الذي تخدّمه هذه النجاحات؟ طوال السنوات الأربع الأولى من الحرب، تبنت الإدارة الأميركية إستراتيجية مثالية - نشر الديمقراطية، وجعل العراق نموذجاً إقليمياً - وبمعزل عن أي تكتيكات واقعية. المخاطرة المماثلة الآن هي أن الإدارة تبنت أخيراً مجموعة من التكتيكات الذكية والبراغماتية، لكنها تخلو من أي إستراتيجية شاملة.

التوصيات

للحكومة العراقية

1. تنظيم انتخابات للمجالس المحلية قبل موعد أقصاه الأول من تشرين الأول/أكتوبر 2008، وضمان أن تشمل هذه الانتخابات كافة الأحزاب، والمجموعات، والأفراد الذين يقبلون علناً بالتخلي عن العنف (بدلاً من القيام في المرحلة الحالية بحل الميليشيات).
2. توفير بيئة تكون فيها هذه الانتخابات حرة ونزيهة، خصوصاً باتباع ما يلي:
 - أ. السماح للاجئين والمهجرين داخلياً بالتصويت في أماكن سكنهم الحالية؛
 - ب. توفير الوصول المجاني والمتساوي لوسائل الإعلام الحكومية لكل الأحزاب والمرشحين المستقلين؛

وحكم القانون ويفرضون سلطتهم بقوة السلاح. لقد أدت هذه الفجوات على نحو خاص إلى توليد انقسامات جديدة في مجتمع مقسم أصلاً وإلى مصادر جديدة محتملة للعنف في صراع متعدد المستويات أصلاً. لقد استفادت بعض العشائر بشكل كبير من المساعدة الأميركية، في حين أن عشائر أخرى لم تستفد كثيراً. ستولد إعادة توزيع القوة هذه بالتأكيد حالة من عدم الاستقرار والتنافس يمكن أن تطلق بدورها نزاعات شديدة - وهي حاصلة لا زالت مجموعات المعارضة المسلحة النشطة تعول عليها. لا يشكل أيًا من هذه التطورات تقدماً نحو تعزيز الحكومة المركزية أو المؤسسات؛ ولا تتعدى في مجموعها تعزيز الولايات المتحدة لمواقع لاعبين معينين في حرب أهلية تزداد تشظياً ونزاع محموم على السلطة والموارد. إن الانجازات القصيرة المدى الآن يمكن أن تهدد الاستقرار على المدى البعيد.

طبقاً لمعايير الرئيس بوش، فإن الحشد العسكري كان مفيداً بالدرجة الأولى من حيث أنه دفع الحكومة العراقية إلى التوصل إلى إجماع وطني، وإعادة موازنة علاقات القوة ومنح العرب السنة على وجه الخصوص إحساساً بأن مستقبلهم آمن. من المشروع أن يختلف المراقبون حول عدد ما تحقق من أهداف ومعايير الإدارة الأمريكية. لكن لا يمكن لأي من هؤلاء المراقبين أن يشك في أن أداء الإدارة كان سيئاً. إن افتقارها للقدرة لا يمكن أن يحجب أو يبرر افتقارها للإرادة. نظراً للطبيعة الطائفية للانتلاف الحاكم وعدم استعداده على الإطلاق لتقاسم السلطة، فقد قاوم الانتلاف التوصل إلى تسوية. لماذا؟ ليس هناك ما يدعو إلى إغضاب قواعده، والمخاطرة بتركيبته السياسية، أو التخلي عن المنافع والامتيازات التي يحظى بها عندما لا يكون لانعدام الفعل أية تبعات، وعندما يضمن أن الولايات المتحدة ستدعمه في جميع الأحوال.

يشكل الحشد المرحلة الأخيرة من مشروع "توقف وابدأ" لبناء دولة كفؤة ومؤسسات شرعية. وقد كان التحدي الجوهري في سائر المراحل يتمثل في تسوية النزاعات الكبيرة ووضع حد للصراع الفوضوي على السلطة والمناصب والموارد في مجتمع يجد نفسه، بعد حقبة من حكم الرعب، دون قواعد مقبولة للعبة أو وسائل لفرض هذه القواعد. أما سياسياً، فقد عبّر هذا الصراع عن نفسه من خلال نزاعات مسلحة وغير مسلحة حول بنية نظام الدولة (فيدرالية/مناطقية ودرجة السلطة التي ستتمتع بها المناطق)؛ وملكية، وإدارة وتوزيع ثروات النفط والغاز (قانون المواد الهيدروكربونية)، والحدود الداخلية (خصوصاً حدود إقليم كردستان)؛ وآليات تسوية العلاقات بين "الرابحين" و "الخاسرين" في حقبة ما بعد صدام (على سبيل المثال، اجتثاث البعث، والعفو العام، وإعادة الدمج)؛ والطريقة التي تحصل فيها المجموعات المختلفة على السلطة (الانتخابات مقابل القوة).

تم التوصل إلى عدد قليل من الاتفاقيات التي يتم نقضها بشكل منتظم. إلا أنها لم تحدث أي أثر فعلي. دون التوصل إلى إجماع سياسي حول طبيعة الدولة وتوزيع السلطة والموارد، يبقى إصدار التشريعات خطوة أولى هي في الغالب الخطوة الأقل أهمية. معظم هذه القوانين غامضة بما يكفي لضمان تأجيل تنفيذها، أو أن المعركة حول محتوياتها تصبح صراعاً على التفسير. علاوة على ذلك، وفي غياب الدولة والمؤسسات المحلية الشرعية والفعالة، فإن التنفيذ سيكون من حيث التعريف محازباً ومسيباً. ما يهم بشكل أساسي ليس إصدار قانون في المنطقة الخضراء. المهم هو أن يتم تطبيقه في المنطقة الحمراء.

ج. التركيز على إعادة دراسة وإعادة تدريب الوحدات القائمة حالياً.

15. الضغط على اللاعبين السياسيين العراقيين للتوصل إلى اتفاق سياسي شامل، ومساعدتهم على القيام بذلك، وخصوصاً من خلال القيام بما يلي:

أ. اشتراط الدعم المقدم للحكومة وحلفائها على موافقتها على التسويات السياسية فيما يتعلق بالأراضي المتنازع عليها، والفدرالية، وقانون النفط والمصالحة كما تم وصفها أعلاه؛

ب. السعي من خلال وساطة الأمم المتحدة إلى الانخراط في مفاوضات مع المعارضة المسلحة (باستثناء القاعدة في العراق)، موضحة منذ البداية أنها تعترض إنهاء وجودها العسكري وأنها لا تنوي إقامة قواعد دائمة؛

ج. القيام بدبلوماسية إقليمية بهدف الحد من التدخل في العراق والاتفاق على قواعد اللعبة، وخاصة إشراك إيران وسورية (كما تم وصفه في تقارير مجموعة الأزمات الدولية السابقة) وتشجيع الحوار الإيراني السعودي.

د. وفي حال فشل هذه المساعي، تبني عقد مؤتمر واسع وشامل، تحت رعاية الأمم المتحدة، يجمع كافة اللاعبين العراقيين، ودول المنطقة وأعضاء رئيسيين في المجتمع الدولي بهدف التوصل إلى اتفاق سياسي.

للأمم المتحدة العام للأمم المتحدة

16. مساعدة الحكومة العراقية في التحضير لانتخابات حرة، ونزيهة وشاملة للمجالس المحلية قبل موعد أقصاه الأول من تشرين الأول/أكتوبر 2008 (وانتخابات برلمانية قبل نهاية عام 2009) وذلك من خلال ما يلي:

أ. تقديم مراقبين مستقلين؛

ب. السحب العلني للدعم إذا تبين أن هذه الانتخابات ستكون أقل من شاملة وحرّة ونزيهة، أو ستحدث في بيئة أمنية مقيدة.

17. مساعدة الولايات المتحدة والأعضاء الآخرين في المجموعة الدولية في الانخراط مع جيران العراق في نقاشات حول مستقبل العراق بهدف تخفيف حدة التوتر والتدخل.

18. تعيين مبعوث يتصل بالمعارضة المسلحة (باستثناء القاعدة في العراق) لتمهيد الطريق للمفاوضات مع الولايات المتحدة.

19. تشجيع اللاعبين السياسيين العراقيين ومساعدتهم على التوصل إلى اتفاق سياسي شامل، كما جاء وصفه أعلاه.

20. وإذا فشلت هذه المساعي، تبني هدف يتمثل في عقد مؤتمر واسع وشامل يجمع اللاعبين العراقيين، ودول المنطقة، والأعضاء الرئيسيين في المجتمع الدولي بهدف التوصل إلى ميثاق سياسي جديد.

21. زيادة عدد موظفي الأمم المتحدة ومواردها في العراق. بحيث تعكس الدور السياسي المتنامي للأمم المتحدة في العراق.

ج. تشجيع المراقبين المستقلين، من عراقيين ودوليين، على حضور الإعداد للانتخابات والتواجد في المراكز الانتخابية يوم الانتخابات.

3. صرف المسؤولين والقادة المدانين بالسلوك الطائفي من الهيئات الحكومية، وقوى الأمن، وأجهزة الاستخبارات.

4. الانخراط في محادثات مع طيف واسع من اللاعبين السياسيين، داخل وخارج مجلس النواب، للتوصل إلى اتفاق سياسي جديد واسع ومتكامل حول قضايا الحدود، والسلطة، والموارد، والذي ينبغي أن تتضمن العناصر الرئيسية فيه ما يلي:

5. وضع ما يسمى بالأراضي المتنازع عليها، بالاعتراف بحقوق كافة سكانها وفئاتها، بما في ذلك من خلال ترتيبات تقاسم السلطة وحماية حقوق الأقليات؛

6. قانون المواد الهيدروكربونية: السماح للحكومة الإقليمية في كردستان وتشجيعها على استكشاف واستغلال موارد النفط والغاز الواقعة في منطقة كردستان من خلال عقود تقاسم الإنتاج؛

7. الفدرالية: تشجيع فدرالية غير متناظرة تعترف بمنطقة كردستان لكنها تقيم سلطات إقليمية لا مركزية على مستوى المحافظات وليس على مستوى الأقاليم؛

8. المراجعة الدستورية: مراجعة الدستور طبقاً لاتفاقيات يتم التوصل إليها حول العناصر الثلاثة أعلاه وعرض هذه الرزمة من التسويات على الاستفتاء الشعبي.

9. تشجيع المصالحة، وذلك بالقيام بما يلي:

10. تعديل قانون اجتهات البعث الصادر في كانون الثاني/يناير 2008 للسماح لمسؤولي البعث السابقين الذين لم يرتكبوا أية جرائم بالعودة إلى مواقع في الحكومة وأجهزة الأمن؛

11. تنفيذ العفو العام الصادر في شباط/فبراير 2008 على أساس غير محازب ومطالبة الولايات المتحدة بنقل المعتقلين في العراق إلى سلطة الحكومة العراقية؛

12. دمج "أبناء العراق" في الخدمة المدنية وأجهزة الأمن (من خلال دراسة خلفياتهم وإعادة تدريبهم) شريطة أن يلتزموا علناً بالامتناع عن العنف، وتوفير وظائف لأولئك الذين لا يمكن دمجهم.

للحكومة الأمريكية

13. الضغط على الحكومة العراقية وتشجيعها على تنظيم انتخابات مجالس محلية شاملة، وأمنة، وحرّة ونزيهة في موعد أقصاه الأول من تشرين الأول/أكتوبر 2008.

14. تعديل أسس تقديم الدعم العسكري من خلال ما يلي: دعم العمليات العسكرية التي تتسجم مع إستراتيجيتها وأهدافها فقط؛

أ. اشتراط تقديم المساعدة والتدريب بالسلوك المحترف وغير المحازب لمن يتلقاه؛

ب. رفض دعم الوزراء الطائفيين أو الوحدات العسكرية الطائفية وقادتها؛

العراق بعد الحشد العسكري I: المشهد السني الجديد

I. مقدمة

عندما أعلن عن الحشد العسكري في البداية، كانت القوات الأميركية في العراق تواجه تمرداً عنيداً يزداد ضراوة على نحو خطير. طبقاً للإحصاءات العسكرية الأميركية، وصلت الهجمات - باستثناء تلك التي كانت تستهدف المدنيين - إلى أوجها في منتصف عام 2007 فسجلت 1,500 هجوماً في الأسبوع. رغم أن عدد الضحايا المدنيين انخفض قليلاً في أواخر عام 2006، فإن عدد القتلى العسكريين العراقيين والأمريكيين بدأ بالانخفاض الحاد فقط بعد تموز/يوليو 2007. تمثل العنصر الجوهري في هذه الظاهرة في التغيرات الكاسحة التي طرأت على السكان العرب السنة الذين كانوا قد رفضوا وبشكل قاطع الاحتلال والعملية السياسية التي رعاها. وبحلول نهاية العام، كانت القاعدة في العراق، التي كانت قبل وقت غير بعيد قد شعرت بما يكفي من الثقة لتحاول حشد كافة مجموعات المعارضة المسلحة تحت لوائها، قد أخرجت من جميع معانها. وبات العديد من زعماء العشائر يتعاونون علنياً مع الولايات المتحدة ويأخذون دورهم في الأنشطة الاقتصادية والفعاليات السياسية المحلية. وانضمت المجموعات المسلحة وقادتها الذين كانوا قد تحاشوا كافة أشكال التعاون مع الولايات المتحدة إلى القتال ضد القاعدة في العراق، واضطلعت بدور الشرطة وشرعت تنظر في المشاركة في الانتخابات المحلية القادمة. وظهر العمل المسلح الذي بدأ على وشك تحقيق نصر استراتيجي اليوم مشتتاً متفرقاً.

سيكون من قبيل التبسيط المفرط أن نعزو كل هذه الوقائع إلى الحشد وحده، وكذلك الأمر أن ننفي أي صلة سببية بين الاثنين. من المؤكد أن ازدياد عدد القوات ساعد في تحقيق قدر أكبر من الأمن، وتغيير ميزان القوة وتشجيع المعارضين للقاعدة على الانتقال من جانبها إلى الجانب المعادي لها. غير أن إضافة 35,000 جندياً إلى القوات البالغ عددها 130,000 والموجودة أصلاً هناك يمكن أن يكون ذا تأثير هامشي. في الواقع فإن بعض هذه التغيرات حصلت في مناطق لم تشهد أي زيادة في الوجود العسكري الأميركي. ما كان يمكن لتلك التطورات أن تحدث بالسرعة والجسامة التي حدثت بها دون تحولات داخلية عميقة صاحبها. لم تقم الولايات المتحدة بتوليد هذه الأحداث، بل بادرت إلى إظهار المرونة والدرامية اللزمتين لتجسير هذه التغيرات لصالحها. إن الحشد العسكري يشكل عنصراً واحداً في جملة من الديناميات المعززة لبعضها البعض، والتي ينبغي فهم تعقيداتها وخفاياها إذا أريد لهذه الفرصة السانحة أن تتحول إلى تقدم أكثر استدامة.¹

II. الانقسامات الداخلية في القاعدة وأثرها على هزيمتها

أ. الهجوم الأميركي والتوسع المفرط للقاعدة في العراق

عندما نشرت مجموعة الأزمات الدولية في مطلع عام 2006 دراسة عن التمرد بدت القاعدة في العراق - التي كانت آنذاك بقيادة أبو مصعب الزرقاوي - قوية جداً. فقد شنت العديد من الهجمات الكبيرة والمعقدة ضد القوات الأميركية والعراقية والمدنيين، وخصوصاً الشيعة. وقد ألهمت بياناتها وطريقة عملها وحفزت شرائح كبيرة من المعارضين السنة. ورغم وجود خلافات عميقة وتنافس شديد مع مجموعات أخرى، فإنها بقيت غير علنية؛² فقد كانت معظم المنظمات المسلحة مستعدة لتوحيد الصفوف ليس بسبب ولائها للقاعدة بل بسبب خوفها من عواقب الفرقة. كما كانت أيضاً مستعدة لمواجهة عدو أميركي بدت هزيمته حينذاك وشيكة. ومن أجل الوحدة، كانت القاعدة تقلل من شأن بعض تكتيكاتها الخلافية على نحو خاص؛ وتتكر المشاركة في الهجمات التي تستهدف المدنيين، ووضعت حداً لإحدى ممارساتها المتمثلة في قطع الرؤوس أمام كاميرات الفيديو. كما سعت "العرقنة" صورتها، وذلك بتشكيل وحدات كاملة من العراقيين والاندماج مع مجموعات ذات اتجاهات "وطنية" لتشكيل مجلس شوري المجاهدين الذي كان يقال أن أميره وناطقه الرسمي وقائده العسكري من العراقيين.³

حينذاك، استغلت القاعدة أيضاً موجة العنف الموجه ضد السنة الذي كان قد تكثف في عام 2005، والذي شكل في أحد أوجهه رداً على الهجمات الوحشية التي شنتها المجموعة ضد الشيعة.⁴ استفادت الحركة من الاستقطاب الطائفي المتنامي، الذي مكنها ومجموعات مسلحة أخرى من حشد الدعم باستحضار المذابح التي استهدفت

التقرير رقم 72 الذي أعدته مجموعة الأزمات الدولية عن الشرق الأوسط بعنوان "الحرب الأهلية في العراق، الصديرون والحشد العسكري الأميركي" بتاريخ 7 شباط/فبراير 2008.

² "كان ينظر إلى مثل هذه التوترات على أنها نذر انقسامات متنامية وغير قابلة للإصلاح إلا أنه ورغم كل خلافاتها الواضحة وفي بعض الأحيان الاحتكاكات العنيفة بين هذه المجموعات فإن من الملفت أن هذه الخلافات بدلاً من أن تؤدي إلى التسريع في انهيار التمرد، زادت من تماسكه، على الأقل من خلال بياناته." تقرير مجموعة الأزمات الدولية رقم 50: "In Their Own Words: Reading the Iraqi Insurgency", 15 February 2006, p. 10.

³ نفس المرجع.
⁴ أنظر على سبيل المثال تقرير مجموعات الأزمات الدولية رقم 52 "الحرب العراقية القادمة؟ الطائفية والصراع الأهلي، 27 شباط/فبراير 2006".

¹ يتعلق معظم التقدم المحرز بوقف إطلاق النار الذي أعلنه مقتدى الصدر من جانب واحد، وهو بعد يقع خارج إطار هذا التقرير، لكنه موضوع

إحداث تغيير كبير فيها. عندما كان قادتها يقتلون، كان يحل محلهم مقاتلون شباب أقل خبرة وانضباطاً وأكثر وحشية كثيراً ما يلجؤون إلى العنف الوحشي العشوائي. يقال أن بعض الأجانب ظلوا في المواقع القيادية العليا في حين أن "الإدارة المتوسطة" كانت بشكل رئيسي من نصيب العراقيين. في عدد من الحالات كان من يطلقون على أنفسهم لقب "أمير" من العراقيين ليسوا أكثر من قادة عصابات شباب لديهم معرفة وفهم متواضعين للإسلام. لكنهم كانوا يغفلون أعمالهم الإرهابية بمقولات دينية غيبية، ومريضة في كثير من الأحيان.¹⁰

ونظراً لأنهم لا يمتلكون مصادر تقليدية للشرعية الاجتماعية أو الروحية، فإن قوتهم كانت تستند إلى نسخة شديدة القسوة والبدائية من الإسلام السلفي. قاموا بتصعيد هجماتهم على العراقيين الذين كانوا يصفونهم عادة بالخونة والمرتدين، سواء كان هؤلاء من عناصر الشرطة أو مجرد مدخنين للسجائر.¹¹ وفي هذه الأثناء، باتت المقاومة ضد الاحتلال وبشكل متزايد مسألة ثانوية.¹² في نفس الوقت، أصبح ينظر إلى التكتيكات الفجة والشريرة التي تتبعها القاعدة في العراق، والتي أبعدت عن الساحة العديد من المسلحين الأكثر خبرة، على أنها غير ضرورية وتحقق نتائج عكسية.¹³ وبمرور الوقت، بدت قيادة الحركة متجاهلة للحاجة إلى المحافظة على علاقاتها مع السكان المحليين ومجموعات المعارضة المسلحة الأخرى.

إحدى أكبر المجموعات المسلحة، وهي الجيش الإسلامي والتي كانت اللغة التي يستعملها مطابقة لتلك التي تستعملها القاعدة في العراق، بدأ يحتج بقوة على افتقار الحركة إلى المرونة. وقال أحد الناطقين باسم الجيش الإسلامي:

تدعي القاعدة في العراق أنها حركة سلفية، لكننا نعتقد أنها بعيدة جداً عن السلفية التي تتصف بالاعتدال والمرونة. كل شيء متطرف من وجهة نظر القاعدة: الناس إما مسلمون أو كفار؛ وعلى كل النساء ارتداء النقاب رغم أن ذلك غير عملي في هذا الوقت ويمكن أن يلفت نظر العدو. أعضاء القاعدة يجهلون السياسة والدين، ولهذا الجهل تبعات عسكرية مباشرة. إذا كان هناك أميركي واحد يجلس بين مجموعة من المدنيين العراقيين،

¹⁰ قال طالب من الموصل له علاقة بمقاتلي القاعدة: "أنكر أنني سمعتهم يتحدثون عن أمير شاب. كان مساعده يسحبون كل من يقبضون عليه. وبصرف النظر عن ظروفه أو أوصافه، فإن حكم الأمير "الديني" عليه كان دائماً هو نفسه "تحت الشجرة" و معناه اعدموه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أيلول/سبتمبر 2007.

¹¹ علق أحد البعثيين بغضب: "حتى السني لا يستطيع السير في الأحياء التي تسيطر عليها القاعدة بعد طرد كافة سكانها الشيعة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات في الموصل، أيار/مايو 2007.

¹² على حد تعبير أحد المسلحين "إن دور القاعدة في الموصل هو دور سلفي تماماً. إنهم يقومون أحياناً بعمليات ضد المحتلين، لكن هذه العمليات أصبحت نادرة. إنهم يركزون بشكل رئيسي على رجال الشرطة أو المتعاونين، والأكرد، والسياسيين - وجميعهم من العراقيين. لا أحد آمن على نفسه. بالكاد تستطيع السير في الشارع أو تتق بأصدقائك." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل لا يرتبط بمجموعة معينة، الموصل، أيار/مايو 2007.

¹³ إنهم لا يعرفون شيئاً عن الدين أو السياسة أو الإستراتيجية العسكرية. لديهم منطوق واحد هو: هناك عدو، سأقاتله وأذهب إلى الجنة،" مقتبس من مقالة بيتر هارلينغ، "الجيل الضائع في العراق"، "القدس العربي"، 11 كانون الأول/ديسمبر 2007.

العرب السنة⁵ وساهمت الحرب الأهلية التي عصفت بالبلاد في عام 2006 في تحقيق أهداف القاعدة في العراق. القتال الطائفي جعل تكتيكاتها تبدو مقبولة أكثر ومفيدة أكثر في الصراع مع عدو شيعي قوي.⁶

في كانون الثاني/يناير 2007، عندما كانت الحرب الطائفية على أشدها، أكد صحفي عراقي على صلة بالمعارضة المسلحة في الأنبار إلى أي مدى أصبحت الطائفية مفيدة في حشد التأييد:

منذ إعدام صدام حسين في كانون الأول/ديسمبر 2006، يشير عدد من الإعلانات والبيانات إلى أن عدة مجموعات مسلحة باتت مستعدة للتقرب من القاعدة. وبالطبع فإن دافعها هو الحصول على التمويل. لكن الأهم من ذلك هو أنها مصممة على مواجهة النفوذ المتنامي للمليشيات الشيعية التي تحقق انتصارات في بغداد. أعرف عن مجموعة صغيرة تضم حوالي ثلاثين مقاتلاً كانت تعمل في الفلوجة. عندما سمعوا في البداية أبو مصعب الزرقاوي يعلن "حرباً شاملة" ضد الشيعة، تخلوا عن المقاومة، وقالوا أنهم لا يريدون أن يتعاطوا مع ذلك النوع من العقوبة. أما الآن فأراهم يبحثون عن الأسلحة لمتابعة القتال من حيث توقف.⁷

رغم كل نجاحاتها الظاهرية، فإن القاعدة في العراق واجهت تحديات جديدة. كانت القوات الأميركية تركز مواردها وقوة نيرانها على المجموعة⁸، وبدأت آثار ذلك بالظهور منذ عام 2006. وأدت الجهود الأميركية المستمرة لتصفية قياداتها إلى قتل واعتقال عدد كبير من قادتها، وتنجحت تلك الجهود في 7 حزيران/يونيو 2006 بمقتل الزرقاوي. وكان لا بد من حدوث تطورات أخرى داخل الطائفة السنية كي تتعرض القاعدة في العراق لانتكاسات خطيرة، لكن ما من شك في أن تصفية الكوادر العليا فيها سهل حدوث ذلك. ويقال أن مصرع الزرقاوي - الذي كان يتمتع بسلطة أكبر وبوسعه فرض قدر من التماسك داخل الحركة - أدى إلى مزيد من الخلافات الداخلية ونشوء خصومات شخصية.⁹

رغم أن القاعدة في العراق أثبتت قدراً كبيراً من القدرة على الصمود، بتجنيد المزيد من الأعضاء بنفس السرعة التي كانت القوات الأميركية تقتلهم والاستمرار في تنفيذ العمليات طوال هذه الفترة، لكن وبمرور الوقت فإن الأثر الإجمالي للحملة أدى إلى

⁵ متابعة مجموعة الأزمات لمنشورات المسلحين، بما في ذلك على مواقع الإنترنت.

⁶ للحصول على وصف لكيف أدى تدمير مرقد سامراء في شباط/فبراير 2006 وما تبعه إلى تعزيز وحدة المتمردين، أنظر: Peter Harling and Mathieu Guidere, « Qui sont les insurgés irakiens? » *Le Monde Diplomatique*, May 2006.

⁷ مراسلات مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع صحفي عراقي ذي صلة بمسليحي الأنبار، كانون الثاني/يناير 2007.

⁸ أظهر مسؤولو فريق عمل العراق في وزارة الدفاع الأميركية اهتماماً كبيراً ومعرفة مفصلة بأوضاع القاعدة في العراق؛ وعلى النقيض من ذلك فإن فهمهم للمجموعات المسلحة الأخرى بدأ سطحياً إلى حد ما. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن دي سي، شباط/فبراير 2006.

⁹ مراسلات مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع صحفي عراقي ذي صلة بمسليحي الأنبار ونيوى، أبريل/نيسان 2008.

يشكل الحماية الوحيدة له. وفي مناطق أخرى يكون متطرفاً لا تهمه الحماية لأنه يريد أن يموت على أي حال. إذا أراد، بإمكانه أن يطلق قذيفة هاون من باحة منزل، وإذا حاول صاحب المنزل أن يمنعه خوفاً من انتقام الأميركيين، فإن الأمير سيخبره بأنه لا يملك شيئاً وأن كل شيء هو ملك لله. وإذا أصر صاحب المنزل، فإن الأمير سيفتله ببساطة.¹⁹

لم تنتج التوترات فقط من الاحتكاك على مستوى القواعد. بل نشأت أيضاً من التعبير الذي طرأ على موقف القاعدة السابق الذي كان أكثر تصالحاً مع الأطراف الأخرى في التمرد. أثبت الإعلان الذي أصدرته في 15 تشرين الأول/أكتوبر 2006 والذي ينص على إقامة دولة إسلامية مستقلة أنه مثير للشقاق، حيث أزال الغموض فيما يتعلق بالنوايا النهائية للقاعدة في العراق. رفض الإعلان فكرة أن العراق دولة تقاوم من أجل استقلالها، بل اعتبر البلاد ساحة معركة في نضال أوسع. وبالتأكيد بشكل واضح وحصري في المناطق السنية، واستناداً إلى أيديولوجية لا تتسجم بطبيعتها مع تنوع العراق، فقد بات العديد من المسلحين ينظرون إليها على أنها تسهم في ضرب الوحدة وتشجيع التقسيم المستند إلى الأمر الواقع. وعلى حد تعبير أحدهم:

كنا نقوم وبجاح بعمليات مشتركة مع القاعدة. لكنها ضلت عن الطريق القويم بإعلانها تأسيس دولة إسلامية. ترى مجموعات مسلحة أخرى في هذه الدولة مبعث انقسام، وأداة في أجندة طائفية. هدفنا هو وحدة العراق وحرية. ليس للدولة الإسلامية مكان على أرضنا ولا تتمتع بأي دعم شعبي.²⁰

أما معارضة الفئات الأكثر وطنية فقد كانت قوية بوجه خاص. قال ضابط سابق له صلات بمجموعات مسلحة محلية، "ليس للدولة الإسلامية مستقبل في بلاد روعت فيها هذه الدولة معظم السنة. الأهم من ذلك هو أن العراق متعدد الأعراق والطوائف. لا يمكن لمثل هذه الدولة أن تحصل على دعم شعبي حقيقي."²¹ وبات النقد الموجه إلى الأجندة الأجنبية للقاعدة في العراق يعبر عنه من خلال اتهامات بأن التيار الجهادي كان يخدم وعلى نحو متعمد الطموحات الإيرانية أو الأميركية وذلك بإضعاف وحدة البلاد وشخصيتها العربية،²²

¹⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد المتعاطفين مع المعارضة المسلحة وكان يتمتع بعلاقات وثيقة مع القاعدة، حزيران/يونيو 2007.
²⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسلح لا يرتبط بأي مجموعة بعينها، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

²¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق له علاقات وثيقة بالمجموعات المسلحة المحلية، الفلوجة، أيار/مايو 2007. "إن الدولة الإسلامية التي تتسبب أن لدينا مسيحيين وأقليات أخرى ليست سوى عملية دعائية. وحدها المقاومة الوطنية لها رؤية واقعية لهذا البلد." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل ينتمي إلى كتائب ثورة العشرين، وهي مجموعة مسلحة متوسطة الحجم نشأت في قبيلة زوبع، الرمادي، أيار/مايو 2007.

²² "كان واضحاً لنا منذ البداية أن القاعدة كانت وراء خطف وقتل الدبلوماسيين العرب (المصريين، والسودانيين، والمغاربة، والجزائريين). وبتنا نعتقد بأن الهدف هو تخليص العراق من أي نفوذ عربي، بحيث تصبح إيران اللاعب الوحيد. لا يمكننا فهم هذه الأفعال إلا في سياق خطة إيرانية." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعيم قبلي بارز من الفلوجة، شارك سابقاً في نشاط المعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008.

فإن القاعدة تعتبره هدفاً مشروعاً ومبرراً. هذه أفكار مستوردة من المجاهدين الأجانب. إنها لا تتسجم مع التقاليد والثقافة المحلية. لقد تأثر العديد من شبابنا بذلك لأن الجهاد ولد موجة كبيرة من الحماسة. غير أن أساليبهم تتناقض مع قراءتنا للشريعة ومع أهدافنا السياسية والعسكرية.¹⁴

أبدى السكان المحليون وزعماء العشائر رد فعل قوي اتجاه مقاتلي القاعدة في العراق الذين بات ينظر إليهم على أنهم غرباء – ليس بالضرورة أجانب، لكنهم متأثرون بالأجانب،¹⁵ وفي كثير من الأحيان غرباء على البيئة التي كانوا يعملون فيها: فلاحون في بيئة حضرية، أو سكان مدن في بيئة ريفية، أو عراقيون من مناطق أخرى من العراق.¹⁶ وتعرض الزعماء الحضريون، وزعماء العشائر، ورجال الدين إلى التحدي، والإخضاع والقتل.¹⁷ وفي كثير من الأحيان أدت الممارسات المتطرفة للقاعدة في العراق إلى أكثر من تشتيت النخب المحلية؛ فقد أجبروا شرائح كبيرة من السكان على مغادرة المناطق التي كانوا قد عاشوا فيها لوقت طويل.¹⁸

بحلول منتصف عام 2007 كان أحد المراقبين يصف صورة مختلطة:

لقد أصبح للقاعدة وجوه مختلفة. في بعض المناطق يسعى أميرها لبناء العلاقات مع السكان المحليين، لأنه يعلم أن دعمهم

¹⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع المتحدث باسم الجيش الإسلامي في أيار/مايو 2007. لدراسة اللغة التي يستعملها الجيش الإسلامي، أنظر: Pascale Combelles Siegel, "Partner or Spoiler: The Case of the Islamic Army in Iraq," *CTC Sentinel*, Vol. 1, No. 2 (January 2008), pp. 12-14.

¹⁵ لم يكن الأجانب غائبين تماماً رغم "عرقنة" القاعدة. طبقاً لأحد المتعاطفين السابقين، "لا يمثل المقاتلون العرب داخل القاعدة في العراق أكثر من 5 بالمائة من أعضائها، ولا يكونون عادة مقاتلين عاديين. بعضهم يقودون مجموعات صغيرة، وآخرون يتولون مواقع قيادية. وظلوا يشكلون أحد أسباب سلوك القاعدة العنيف ضد العراقيين العاديين." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد المتعاطفين السابقين مع القاعدة، آذار/مارس 2008. تشير المصادر الرسمية الأميركية بشكل عام إلى نسبة مرتفعة من الأجانب بين الانتحاريين الذين، من حيث التعريف، لا يقضون وقتاً طويلاً في المنظمة. علاوة على ذلك، فإن إدارة هؤلاء تتضمن شبكة محلية واسعة لتدريبهم إلى داخل العراق، وإيجاد مأوى لهم، وتزويدهم بالمتفجرات (والسيارات في بعض الأحيان)، وتحديد الأهداف، وتصوير الهجوم وما إلى ذلك.

¹⁶ استولت القاعدة على البلدة من سكانها الحقيقيين. لقد قتل رجال شرطتنا زعماء عشائرننا، وأئمتنا، وأطبائنا، ومدرسيننا. لقد قتلوا رجال شرطتنا واختطفوا عائلاتنا بحيث أن الناس الذين عاشوا هنا لأجيال اضطروا إلى مغادرة مدينتهم. كما أن أجندة القاعدة غريبة علينا. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق تصدى لمحاربة القاعدة في حي الجولان في مدينة الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

¹⁷ شرح أحد سكان بعقوبة قائلاً، "أساعت القاعدة معاملة السكان وارتكبت العديد من الجرائم. لقد ولد المقاتلون الكثير من الكراهية ضدهم ببساطة لأنهم كانوا يقولون للجميع أنهم أعرف منهم. وجرى تحدي سلطة زعماء العشائر والشيوخ الآخرين بما في ذلك شيوخ غير سلفيين يحظون باحترام كبير. وفي مدينتنا كان استهداف الشيعة بشكل عام، وليس فقط الأحزاب الشيعية التي أتت على الدبابات الأميركية لا يحظى بالشعبية." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات بالهاتف مع أحد ضباط الشرطة في بعقوبة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

¹⁸ علق أحد الضباط الأميركيين قائلاً: "في آب/أغسطس وأيلول/سبتمبر كانت صور رجب مدينة أشباح لأن القاعدة لها حضور قوي جداً في المدينة. كانت الجثث مقطوعة الرؤوس ترمى في الشوارع." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد عسكري أميركي في حور رجب، آذار/مارس 2008.

أماكن أخرى".²⁹ في حين أن البعض قلل من المخاوف بشأن ما يسمى بالدولة الإسلامية³⁰، فإن البعض الآخر بقي صامتاً بسبب الخوف.

ظلت بعض الجماعات في حالة إنكار، تدعي بأن وحشية القاعدة ليست أكثر من تليفات تطلقها الولايات المتحدة وتهدف إلى تفریق هذه المجموعات من أجل هزيمتها.³¹ في أيار 2007 عندما كانت مجموعة الأزمات تقوم ببحث ميداني في منطقة الأنبار، كانت الأوضاع لا زالت غير مستقرة: رغم أن الفجوة بين القاعدة في العراق وبعض العشائر كانت قد ظهرت للعلن (أنظر أدناه)، فإن التوترات مع المجموعات المسلحة كانت تمور تحت السطح لكن بدا أنها قابلة للاحتواء.³² إلا أن الديناميات والضغوط الكامنة كانت خطيرة بما يكفي لتسهيل تحول مفاجئ إذا تحقق الزخم اللازم وعندما يتحقق ذلك الزخم.

ب. الانشقاق بين القاعدة في العراق والمجموعات المسلحة

تعمقت شقة الخلاف في الوقت الذي فشلت فيه القاعدة – التي جهلت أو تجاهلت تبعات سلوكها – في تغيير مسارها.³³ وتم توجيه تحذيرات واضحة لقادتها. في حين دعا أبو عمر البغدادي، أمير

وتلطخ سمعة المقاومة وتقديم ذريعة للميليشيات الشيعية كي تضرب السنة.²³

رغم ردود الفعل هذه، استمرت القاعدة في العراق في سعيها لفرض أساليبها والادعاء بأن لها اليد العليا.²⁴ حاول مقاتلوها أن يفرضوا على المجموعات الأخرى أن تقسم يمين الولاء للدولة الإسلامية، مما أدى إلى صدامات متكررة. تحول بعض هذه النزاعات إلى أحقاد دائمة، خصوصاً عندما يتعلق الأمر باغتيال شخصيات معروفة في حركة المعارضة المسلحة²⁵. ازدادت الهوة اتساعاً بين القاعدة في العراق والمجموعات الأخرى على مراحل. في البداية لم يقاومها كثيرون، أولاً بسبب مواردها المالية الكبيرة، وثانياً بسبب الالتزام بالوحدة ضد عدو مشترك.²⁶ كانت معارضة التيار الجهادي تتطوي ضمناً على الوقوف إلى جانب الولايات المتحدة، وهو خط أحمر بالنسبة لمعظم المجموعات؛ وكان أي اقتراح بذلك الشأن يؤدي إلى موجة من البيانات الصادرة من المعارضة المسلحة تتهم فيها أولئك الذي ينتقدون القاعدة في العراق بالتعاون مع المحتل وينكرون أنهم فعلوا ذلك.²⁷ ما كان يحظى بالأهمية لدى البعض كان دور القاعدة في العراق في الدفاع عن بغداد ضد الميليشيات الشيعية (رغم انتقادات آخرين بأنها لم تكن فعالة في قيامها بذلك).²⁸ وفي

الممكن هو الولايات المتحدة". شهادة أمام لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ،

2 نيسان/أبريل 2008.

²⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ناطق رسمي باسم إحدى المجموعات المسلحة، أيار/مايو 2007.

³⁰ رؤية القاعدة الرجعية تخيف العديد من العراقيين. لكن هذه الدولة الإسلامية أسطورة وملهاة من نوع ما. فمن جهة لا تتمتع القاعدة بدعم الأغلبية لهذا الرأي. ومن السخف إعلان وجود دولة إسلامية في حين أن البلد بأكمله لا يزال تحت الاحتلال". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسلح لا يرتبط بأي مجموعة معينة، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

³¹ "رغم كل انتقاداتي للقاعدة، لا زلت أعتقد أنها أفضل من المحتل، على الأقل لأن لنا نفس الأعداء الإيرانيين والأميركيين. أما التوترات الناشئة فهي نتيجة الجهود الأميركية. يرتكب الأميركيون الجرائم من أجل تلطخ سمعة المقاومة وتعميق الانقسامات الداخلية. على أية حال فنحن نرحب بكل القوى المعادية للاحتلال. إذا علمت بأن الشيطان يقاتل الأميركيين، فسأعمل معه بدأً بيد." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل لا يرتبط بمجموعة معينة، الرمادي، أيار/مايو 2007.

³² "في معظم المناطق السنية ليس هناك توترات خطيرة، باستثناء الرمادي. ذاك هو المكان الوحيد الذي رأينا فيه نمطاً متكرراً من أعمال القتل بين القاعدة والمقاتلين الآخرين. وتنتشر أعمال القتل هذه الآن إلى الفلوجة. غير أن هذه هي نتيجة سياسة فرق تسد التي يتبعها الاحتلال وحلفائه العراقيين؛ ولا أتوقع أن تحقق كثيراً من النجاح. هناك الكثير من الخلاف – بيننا وبين القاعدة، لكن بين الاختلاف وقتال بعضنا بعضاً ثمة خطوة كبيرة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل لا يرتبط بأي مجموعة معينة، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

³³ في أيار/مايو 2007، قال الناطق الرسمي باسم أحد أكبر الائتلافات المسلحة وهو جبهة الجهاد والإصلاح، "إن واجبنا في الوقت الحاضر هو الدفاع عن عاصمتنا. ندعو كل سنة العراق للدفاع عن بغداد بدلاً من التركيز على قضايا ثانوية: وفي هذا الصدد يبدو أن القاعدة ردت رداً إيجابياً، على الأقل في خطابها، لكننا أبعد ما نكون عن ذلك في الميدان. الحقيقة هي أنه ليس هناك قدر كبير من القيادة والتحكم في ذلك التنظيم، وبالتالي فالأمر يعتمد كلياً على سلوك القادة المحليين". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات I أيار/مايو 2007.

²³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء من المسلحين، الموصل، والرمادي، والفلوجة، أيار/مايو 2007.

²⁴ تصر القاعدة الآن على أن تعترف بها كافة المجموعات المسلحة بوصفها زعيمتها. ولتحقيق ذلك الهدف، تلجأ إلى العنف والإكراه". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات الدولية مع ضابط سابق له صلات وثيقة بمجموعات المتمردين، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

²⁵ قتل حارث ضاهر الضاري الذي يقال أنه كان قائد كتائب ثورة العشرين، في كمين في 27 آذار/مارس 2007. مثى حارث الضاري، قريبه والمتحدث الرسمي باسم هيئة العلماء المسلمين (منظمة سياسية دينية تشكلت عام 2003 وتتمتع بصلاوات وثيقة ببعض الجماعات المسلحة)، اتهم القاعدة علناً باغتياله. مقابلة مع الجزيرة، 27 آذار/مارس 2007. نشأ عن ذلك عنف مستمر. في أيلول/سبتمبر ادعت القاعدة أن الكتائب كانت قد أعدمت مقاتليها.

بيان على الإنترنت أصدرته الدولة الإسلامية، 22 أيلول/سبتمبر 2007. ²⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسلح لا يرتبط بأي منظمة معينة الموصل، أيار/مايو 2007. "بدأت المشاكل بين المجموعات المسلحة، غير أن وجود عدو مشترك لا يمنحنا ترف إضاعة الوقت في هذه النزاعات الجانبية. نحن ن تبادل المعلومات والمساعدة الفنية في سياق معركة صعبة ضد أكبر قوة في العالم هذا هو الرابط الذي يوحدنا." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسلح لا يرتبط بمجموعة معينة، الفلوجة أيار/مايو 2007.

²⁷ على سبيل المثال في 16 أيلول/سبتمبر 2007 ردت الجبهة الإسلامية للمقاومة العراقية (المعروفة بجامع) على اتهامات القاعدة بالتعاون مع الولايات المتحدة؛ في 20 آب/أغسطس 2007، أدان جيش المجاهدين وجبهة الجهاد والإصلاح بقوة تلك المجموعات العاملة إلى جانب الولايات المتحدة في ديالى. بيانات حصلت مجموعة الأزمات عليها.

²⁸ يجادل المحلل الأميركي ستيفن بيدل بأن فشل القاعدة في مواجهة الميليشيات الشيعية بكفاءة ومنعها من بسط سيطرتها على بغداد ساعد في إقناع حركة التمرد بالوقوف إلى جانب الولايات المتحدة. "قبل معركة بغداد، تساهل معظم السنة وتحملوا هذه الأكاليف على افتراض أن قيمة القاعدة في العراق في قتالها ضد الشيعة والولايات المتحدة تفوق سيناتها. إلا أنه وعندما أصبحت الهزيمة في بغداد أكثر وضوحاً، بات من الواضح أيضاً أن القاعدة غير قادرة على الحماية الحقيقية. في أواخر عام 2006 أقتعت عدم قدرة القاعدة في العراق على منع الهزيمة في بغداد والأكاليف التي فرضتها على أبناء دينها العديد من السنة بالبحث عن حلفاء جدد. وكان الخيار الوحيد

عام 2007. وفي المحصلة، تحولت كافة المجموعات المسلحة الهامة ضد القاعدة في العراق. في أيار/مايو، قال أحد المتحدثين باسم جيش المرابطين، وهو مجموعة متوسطة الحجم ما يلي:

نحن نعمل على برنامج لتوحيد كافة فصائل المقاومة باستثناء القاعدة. من حيث المبدأ، ليس لدينا أي مشكلة مع أي مجموعة تعمل على تحرير العراق، كما أننا نمتنع عن إثارة أي خلاف حول رؤية كل مجموعة أو أساليبها. غير أن لدينا مشاكل حقيقية مع القاعدة. لدينا وجهات نظر مختلفة حول كيفية التعامل مع المدنيين، غير أن لدينا مشاكل تتعلق بحالات معينة من سوء السلوك. نحن لا ننظر إلى ذلك على أنه يمثل قيادة القاعدة، فالحركة مقسمة فيها تيارات معتدلة، وعناصر مرتبطة بالجهاد الأفغاني، وشرائح تستغلها إيران وحتى مجموعات نشك في أنها تخضع للسيطرة الأميركية. لا نستطيع أن نتساهل إزاء كل هذه الجرائم ضد المدنيين – سواء كانوا سنة أم شيعة. لقد شاركنا في المقاومة لمدة أربع سنوات ووصلنا إلى مرحلة النضج. نعلم أنه لا يمكن تحرير العراق دون درجة أكبر من الوحدة داخل صفوف المقاومة، ودون إعطاء المقاومة هوية واضحة. لا بد أن نؤكد على وحدة العراق وهويته الثقافية.³⁹

كما ناقش بمزيد من التفصيل أدناه، فإن علاقات القاعدة بالعشائر السنية تميزت بالكرهية والشكوك المتبادلة منذ البداية؛ أدانت حركة الجهاد التقليدي بوصفها غير إسلامية وتحدت سلطة المشايخ.⁴⁰ وقبل الحشد العسكري الأميركي بوقت طويل، كانت عمليات قتل زعماء العشائر من قبل القاعدة في العراق ومن ثم دورات الانتقام أمراً شائعاً.⁴¹

لقد كانت كلفة تفجير شرايح واسعة وهامة من السكان السنة كبيرة على القاعدة في العراق. بحرمان نفسها من الدعم الذي يمكن أن تقدمه الشرايح التي يمكن أن تشكل بينتها الاجتماعية والسياسية،

الدولة الإسلامية كافة المجموعات المسلحة المشاركة في الجهاد للاجتماع تحت لوائها، كان الجيش الإسلامي – إحدى أقوى تلك المجموعات – يشجب القاعدة في العراق بقوة. فقد قلل من شأن مقاومتها للاحتلال، وانتقد تكتيكاتها التي تثير الانقسام، واشتكى من إدانها الآلية لأي مجموعة منافسة على أنها كافرة أو خائنة وشجب طموحاتها في الهيمنة. وادعى بأن القاعدة كانت قتلت حتى ذلك الوقت أكثر من 30 من أفرادها. وبرر صمته الطويل بالحاجة إلى قتال الأميركيين، "والفرس" وحلفائهما المحليين، ودعا قيادات الحركة الجهادية في العراق والخارج إلى العودة إلى الطريق القويم.³⁴

تبع ذلك سلسلة من الأخذ والرد. وفي 17 نيسان/أبريل 2007، أصدر البغدادي بياناً ينكر فيه معرفته بأي سوء تصرف ويأمر مسلحيه بالألا يعتبروا الأشخاص الذين لا يتفقون معهم مقاتلين أعداء. رد المتحدث باسم الجيش الإسلامي في نفس اليوم مصراً على إعلان التوبة وعرض تزويد البغدادي "بمئات الأدلة" دعماً لادعاءاته.³⁵

اتخذت معارضة القاعدة في العراق أكثر من مجرد أشكال خطابية؛ إذ قامت العديد من المجموعات المسلحة بتشكيل التحالفات، في شكل من أشكال التحدي الضمني للاحتكار الذي تطمح إليه الدولة الإسلامية. في 2 أيار/مايو 2007، أسست ثلاث من أكبر المجموعات (الجيش الإسلامي، وجيش المجاهدين، وأنصار السنة). "جبهة الجهاد والإصلاح"، التي يتناقض برنامجها بشكل مباشر مع برنامج القاعدة في العراق.³⁶ ولم يمض وقت طويل قبل أن يوجه أبو أيوب المصري، قائد القاعدة في العراق، توبيخاً إلى المجموعات الثلاث لتعاونها مع حكومة نوري المالكي.³⁷ رغم عدة محاولات للمصالحة،³⁸ فقد تصاعدت المواجهة – الكلامية والفعلية – طوال

³⁴ بيان الجيش الإسلامي الذي نشر على الإنترنت، 5 نيسان/أبريل 2007.

³⁵ الجزيرة، 17 نيسان/أبريل 2007.

³⁶ في 13 أيار/مايو 2007، أسست أربع مجموعات غير معروفة كثيراً "ألوية الجهاد والتحرير في العراق". وبعد يومين شكلت ثمان مجموعات "الجبهة العراقية للمقاومة والتحرير". وفي وقت سابق، كانت تسع مجموعات صغيرة قد أعلنت عن "مكتب التنسيق للمقاومة الوطنية والإسلامية العراقية". وقامت أربع عشرة مجموعة بتشكيل "الجبهة الشعبية للمقاومة العراقية". وهناك عدد آخر من الأمثلة على الاندماج، والانشقاق، وإعادة الترتيب، وكلها كانت تتحدى – ضمناً أو صراحة – محاولة القاعدة توحيد المسلحين تحت قيادتها. بيانات حصلت عليها مجموعة الأزمات. وصف أحد المراقبين العلاقة بين جبهة الجهاد والإصلاح من جهة والقاعدة من جهة ثانية بقوله: "لقد كان هناك العديد من المحاولات لتشجيع التعاون، والتحالف، وحتى التوحيد. المثير للاهتمام هو أن الجبهة تشجب بوضوح العنف ضد المدنيين وتدعو إلى مزيد من التسامح. وهذا بمثابة شجب للقاعدة. وتم التعبير عن هذا الشجب علناً في بيان طبع ووزع على نطاق واسع". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق تربطه صلات قوية بالمجموعات المسلحة، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

³⁷ رسالة مسجلة اقتبست من جريدة "الحياة"، 6 أيار/مايو 2007.

³⁸ في 6 حزيران/يونيو 2007، وقع الجيش الإسلامي والقاعدة اتفاقاً صمم "الحماية مشروع الجهاد، ومنع أي انشقاق في صفوف المقاومة والحفاظ على دماء المسلمين، وقتال العدو وتحييد أولئك الذين يريدون الاستفادة من الاحتلال". دعا الاتفاق إلى وقف إطلاق نار فوري من الطرفين، ووضع حد لاخطاف المقاتلين الذين ينتمون إلى أي من المجموعتين، ووقف التصعيد في الحرب الكلامية وتشكيل لجنة لتسوية كافة القضايا الخلافية. اتفاق حصلت عليه مجموعة الأزمات. غير أن هذا الميثاق أنهار بسرعة.

³⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع المتحدث باسم جيش المرابطين، أيار/مايو 2007. أصدر هذا البيان في الوقت الذي كان فيه تشكيل "الجبهة العراقية للمقاومة والتحرير" – وهي ائتلاف يضم ثماني مجموعات، بما فيها جيش المرابطين وألوية الجهاد والتحرير – قيد النقاش.

⁴⁰ "كانت التوترات بين القاعدة والعشائر موجودة دائماً، رغم أن بعض العشائر تعاونت مع الحركة. لكن منذ البداية أعلن الزرقاوي أنه كان يشن حروب ردة، وهي إشارة قرآنية. عندما توفي الرسول، أعلنت بعض العشائر أنها لم تعد مسلمة؛ فقاتلها الخليفة أبو بكر حتى أخضعها. قارن الزرقاوي العشائر التي لم تؤمن برويته بالعشائر التي تحددت تراث الرسول. بعبارة أخرى، اتهمها بالردة والكفر". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل لا يرتبط بأي جماعة معينة، الموصل، أيار/مايو 2007.

⁴¹ أحد الأمثلة البارزة هو اغتيال حكمت ممتاز من قبيلة البوباز، وهي قبيلة بارزة في سامراء والضلوعية، شمال بغداد. ليس هناك أي حماية من القاعدة. بدأ شيخ البوباز بالتعاون مع الحكومة بالتعاقد مع بعض أفراد القبيلة لحراسة البنية التحتية في سامراء وحولها. ويتطور هذه العلاقة، وظفت الحكومة رجال قبائل آخرين لإدارة مواقع مختلفة. بدأت القاعدة بقتلهم؛ ورداً على ذلك جادل الشيخ بأنه يتعاون مع الأميركيين من أجل تخفيف الضغوط ومعاونة الناس في المدينة. تعرض هو أيضاً للتهديد، وتم تفجير منزله، وأخيراً تم اغتياله. لم تقف إلى جانبه أي قبيلة أخرى، إما لأن هذه العشائر لم تستند من المزاي التي كان يحصل عليها، أو بسبب الخوف. كما أن القوات الأميركية والعراقية لم تفعل شيئاً لحمايته. نشأ صراع واستمر لمدة من الزمن. في النهاية كانت القاعدة هي المنتصرة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عبيد سابق في الجيش العراقي من سامراء، عمان، شباط/فبراير 2007.

دراية عسكرية أكبر، ومعلومات استخبارية وما إلى ذلك، إنهم يحتاجون إلى المتطوعين بالطبع وحتى بعض الأسلحة التي يمكن للقاعدة أن توفرها لكنني أعتقد أن القاعدة تعتمد على المقاتلين الآخرين أكثر مما يعتمدون عليها.⁴³

عندما بدأت سورية في ضبط حدودها والحد من عبور المقاتلين إلى العراق في أواخر عام 2006 ومطلع 2007، لم تتذمر شخصيات العشائر والمجموعات المتمردة. بل إنهم رحبوا بهذه الخطوة بشكل عام وأصروا على أن القاعدة في العراق هي المستفيد الأكبر من العبور من الحدود.⁴⁴

هذا لا يعني أن المجتمع العراقي قد رفض القاعدة في العراق بشكل نهائي كجسم غريب عنه. لم تتمركز الحركة في موقع جغرافي معين؛ بدلاً من ذلك، فقد كانت دائماً أقرب إلى شبكة متفرقة ذات تنظيم مرن.⁴⁵ وهي قادرة على جمع أيديولوجية قوية إلى موارد مالية كبيرة يقدمها متعاطفون مسلمون في سائر أنحاء العالم، ومقاتلون يتمتعون بالخبرة من مختلف جبهات القتال إضافة إلى مخزون لا ينضب من المتطوعين - مشاريع شهداء، وخبراء في الكمبيوتر وشخصيات دينية في بوتقة واحدة. حتى أشد منتقديها في العراق يشكون في إمكانية هزيمتها في وقت قريب.

لن تخفي القاعدة لعدد من الأسباب. أولاً، لأنها ليست منظمة بل أيديولوجيا، وأيديولوجيا ذات جاذبية أيضاً. إنها تزدهر على النضال ضد الاحتلال الأمريكي والسياسات الأميركية الإقليمية التي تسعى إلى الهيمنة. ثانياً، لأنها تتمتع بقدرات مالية هائلة يزيد من أهميتها وجودها في بلاد ذات احتياجات كبيرة. ثالثاً، إن منظور القاعدة الطائفي ليس خاصية سيئة تماماً، من حيث أن عدداً كبيراً يعتقد هذه الرؤية. رابعاً، ثمة فراغ سياسي، من حيث أن برنامج القاعدة العدمي لا يجد بديلاً مقنعاً لدى العديدين. خامساً، إنها ظاهرة شبابية إلى حد بعيد تجتذب عدداً كبيراً من الشباب.⁴⁶

أصبحت الحركة ضعيفة وعرضة للمشاكل. في العديد من مناطق البلاد، لم يكتف العراقيون بالتوقف عن حماية حركة الجهاد، بل باتوا يشجبونها ويبلغون عنها. كان المواطنون الغاضبون، والمجموعات المسلحة والعشائر يبلغون القوات الأميركية، التي لا تعرف البلاد كما يعرفونها، عن مواقع ومخابئ القاعدة. بدأت القوات الأميركية أيضاً بتنفيذ تكتيكات مضادة للتمرد من أجل الاحتفاظ بالمناطق التي كانت تسيطر عليها، كأن تجعل سلامة السكان المحلية أولوية، وإنشاء قواعد صغيرة متقدمة داخل المجتمعات المحلية؛ والاعتماد على مقاتلين تجنّدهم من الأحياء نفسها، واعتماد مقاربة براغماتية في التعامل مع المقاتلين السابقين، حتى أولئك الذين "لطحوا أيديهم بالدماء الأميركية"؛ والمساعدة في توفير الخدمات وتشجيع الإنعاش الاقتصادي الأساسي في المناطق الواقعة تحت السيطرة الأميركية. طبقاً لقادة أميركيين التقهّم مجموعة الأزمات، فإن ذلك كان مستحيلاً دون القوات الإضافية التي وفرها الحشد العسكري. وكما قال أحدهم:

أعتقد أن التحسن الأمني حصل لأن زيادة عدد القوات سمحت لفرقتنا بالتركيز على مناطق أصغر بحيث أصبح بإمكاننا الدخول والمكوث في هذه المناطق. كان أول شيء نفعلهُ بعد السيطرة هو إنشاء قاعدة للدوريات. أتينا، وحققتنا الأمن في المنطقة وبقينا، وبالتالي بعثنا إحساساً بالأمن. الآن، إذا حدث شيء في المدينة، فعلى الأرجح أن يكون جنودي قد رأوه أو سمعوا به - نحن نعيش مع السكان. خضنا معركة صعبة في أيلول/سبتمبر عندما وصلنا. شنت القاعدة عدة هجمات مضادة قوية، إلا أن هذه الهجمات أثبتت عدم جدواها. بقينا وعادت المحال التجارية لفتح أبوابها وازدهرت المدينة.⁴²

كان حصول القاعدة على الخبرات والموارد المحلية الحيوية في تراجع، مما حد من قدرتها على القتال. علق أحد المراقبين المطلعين قائلاً أنه بحلول منتصف عام 2007 كانت الطاولات قد قلبت: هل زالت القاعدة لا غنى عنها للمجموعات المسلحة الأخرى؟ لا أعتقد ذلك. في الواقع أعتقد أن العكس هو الصحيح. يمتلك الوطنيون، والبعثيون والإسلاميون المحليون معارف محلية أفضل. ولديهم

⁴³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق تربطه صلات قوية مع مجموعات المسلحين، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

⁴⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين للمسلحين وشخصيات قبلية، أيلول/سبتمبر 2007.

⁴⁵ "خلال السنوات الماضية لم ترسخ القاعدة جذورها في منقطة محددة. إنها تنتقل وتتحوّل طبقاً لقوانين حرب العصابات". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق في الجيش العراقي يتمتع بصلات قوية مع المعارضة المسلحة، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

⁴⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد قادة المسلحين، تشرين الثاني/نوفمبر 2007. فيما يتعلق بجاذبية القاعدة للشباب، أنظر: بيتر هارلينغ، "الجيل الضائع في العراق"، المصدر المذكور سابقاً. "لقد كان الانضمام للقاعدة متاحاً دائماً للشبابنا. على عكس المجموعات المسلحة الأخرى، فإن كل ما تطلبه القاعدة ببساطة من الأشخاص الذين يودون الانضمام إليها أن يكون لهم مظهر المتدينين وأن يظهروا دليلاً رمزياً على التزامهم - مثل وضع لغم أو إطلاق قذيفة آر بي جي على قافلة. عند تلك النقطة تبدأ القاعدة بدفع رواتب لهم. وأسمع أن الرواتب تتراوح بين 200 دولار لسانق سيارة يشارك في عملية، إلى 600 دولار للرجال الذين يستعملون أسلحتهم، إلى 1000 دولار للمصورين الذين يصورون ما يجري من أجل نشره على الإنترنت. مراسلات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات مع صحفي عراقي على صلة بالمسلحين في منطقة الأنبار، كانون الثاني/يناير 2007.

⁴² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد عسكري أميركي، حور رجب، آذار/مارس 2008. مثال نموذجي آخر هو المنطقة شبه الريفية لعرب الجبور، التي تقع على مسافة رصاصة من المنطقة الخضراء ولم تكن قد شهدت وجوداً أميركياً مستمراً قبل الحشد. "وصلت وحدتي إلى هنا في حزيران/يونيو 2007 كجزء من الحزام الدفاعي لبغداد. في ذلك الوقت لم يكن هناك قوات شرطة عراقية، ولا جيش عراقي بل الكثير من أفراد القاعدة. قبل الحشد كان لدينا من القوات ما يكفي فقط للتركيز على المراكز السكانية الكبرى. لقد كانت عرب الجبور دائماً معقلاً للتمرد، إلا أن القاعدة أتت وأخرجت الجيش الإسلامي إضافة إلى العديد من المدنيين. طوال عام 2006 كانت القاعدة تجهز السيارات المفخخة هناك وترسلها إلى بغداد. خضنا معارك ضارية للوصول إلى المدينة. كان السكان المحليون يخشون أننا سنكون كغيرنا من قوات التحالف، نبقى لمدة أسبوعين ثم نغادر. رغم ذلك فقد قدم أحد الشيوخ المحليين ثلاثة من رجاله لمساعدة قوات التحالف في العثور على مقاتلي القاعدة. كانوا يسيرون أمام الجنود في الشوارع ويشيرون إلى السيارات المعدة للتفجير. وكانوا يشرحون أن هذا يعبر عن رفضهم للعنف المتطرف والعشوائي الذي كانت تمارسه القاعدة. كانت القاعدة قد سيطرت على موارد مثل الغذاء والماء، مما أدى إلى دعم سلبى من قبل السكان. عندما فهم الناس أننا موجودون لنبقى، تحسنت المعلومات الاستخباراتية التي كنا نحصل عليها لقد منحنا الحشد العسكري ما يكفي من القوات كي نبدأ بالعيش هنا. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد القادة العسكريين الأميركيين، عرب الجبور، آذار/مارس 2008.

علينا أن نستمر في الضغط على القاعدة. الموصل هي آخر معاقلها الحضرية، لكن علينا أيضاً أن نقوم بالمزيد من الجهد في أعالي وادي نهر دجلة، في مثلث الزاب (الزاب - الأصغر والزاب الأكبر هما رافدان لنهر دجلة يمران في كردستان ويتصلان بدجلة جنوب الموصل). إنها منطقة صغيرة لكن هامة. أعتقد فعلاً أن تهديد القاعدة للعراق تراجع كثيراً، لكنها يمكن أن تعود للنشاط - كل شيء هنا قابل للعكس.⁵¹

ما من شك في أن القاعدة في العراق أضعفت بشكل كبير وعانت من انتكاسات هامة. تبين أن الحركة هي عدوة نفسها، فقد أفرطت في التوسع، ونفرت مؤيديها وخلقت بيئة عدائية لنفسها حتى قبل الحشد. لقد ساعد تحول الولايات المتحدة إلى تكتيكات أكثر كلاسيكية وفعالية في محاربة المسلحين إضافة إلى نشر مزيد من القوات - وبشكل خاص في الأنبار وبغداد - وفهمها الأكثر تفصيلاً للمجموعات المسلحة، كل ذلك ساعدها في الاستعادة من هذه الفرصة.

في المحصلة، ما لم تستطيع الولايات المتحدة تحقيقه في الماضي - التوصل إلى اتفاقات مع بعض المجموعات المسلحة والحصول على دعم زعماء العشائر في حربها ضد القاعدة⁵² - حققتة أخيراً وبشكل رئيسي نتيجة أخطاء المجموعات الجهادية نفسها. رغم أن الانقسامات العميقة كانت موجودة منذ زمن طويل، فقد تمكنت القاعدة في العراق من المحافظة على الحد الأدنى من الوحدة التكتيكية مع المجموعات الرئيسية للمسلحين من خلال التخويف والتحويل وأيضاً من خلال تعزيز مصداقيتها الدينية، والمجادلة علناً وبناء إجماع حول إستراتيجيتها، وإنكار مسؤوليتها عن أكثر أشكال العنف الذي مارسه إشكالية، وإثبات فائدتها للتيارات الوطنية من المقاومة.⁵³

لقد أدى التطور الموصوف أعلاه، على أية حال، بالحركة إلى التركيز على التسلط والفساد، مما جعلها أكثر ضعفاً وعرضة لتكتيكات الولايات المتحدة المتمثلة في "فرق واهزم".

ويبقى السؤال مفتوحاً بشأن ما إذا كانت الحركة قادرة على إصلاح ومراجعة نفسها وفي نفس الوقت تحسين قاعدتها المحلية. يوحى بيانها الذي أصدرته في 14 نيسان/أبريل 2008 بأنها على الأقل

حتى الآن أتاح غياب التقدم نحو تحقيق المصالحة الوطنية، والافتقار إلى عمليات ملموسة لإعادة البناء، وفشل القوات الأميركية والعراقية في بسط سيطرتها على المناطق التي تؤوي مقاتلي القاعدة في العراق مجالاً واسعاً للحركة كي تبقى على قيد الحياة عندما تواجه بتحديات عسكرية متنامية فانها تهرب من القوات الأميركية وتعيد الانتشار في المواقع الأقل خطورة.⁴⁷ في الأنبار يقال أن مقاتلي القاعدة في العراق في منطقة الأنبار انتقلوا إلى الشمال، إلى الموصل، وما جاورها أو أنهم ببساطة يختبئون.⁴⁸

ويمكن سماع تقارير مشابهة في بعقوبة، حيث تمت إعادة انتشار قيادة الحركة، في حين اختفى أفرادها أو اندمجوا مع الميليشيات المحلية المتعاونة مع القوات الأميركية المعروفة في الولايات المتحدة "بأبناء العراق".⁴⁹ تم تطهير معاقل أخرى للقاعدة مثل عرب الجبور، أو حور رجب في ضواحي بغداد أو في مدينة سامراء، وعادت الحياة إلى طبيعتها.

في الوقت الراهن، يبدو أن الحركة الجهادية تتركز في الشمال، في المناطق المختلطة على حدود منطقة كردستان. هناك، تبقى البيئة موالية لعدد من الأسباب: فالحشد العسكري لم يصل إلى تلك المناطق؛ الأحزاب الكردية تعارض ظهور الميليشيات السنية، وتخشى أنها يمكن أن تصبح في النهاية تهديداً أكثر قوة من المعارضة المسلحة القائمة حالياً: التوترات العرقية والاستياء العربي مما يرون فيه أجندة كردية توسعية تعني أن تحافظ القاعدة على جاذبيتها؛ وتوفر طبيعة الأرض (مزيج من الهضاب والقرى البعيدة والمراكز الحضرية الكبيرة مثل الموصل وكركوك، ماوى مناسبة في غياب أي وجود عسكري عراقي أو أميركي هام. يقال أن الحكومتين العراقية والأميركية تخططان لهجوم كبير للقضاء على القاعدة في العراق في ماواها في الشمال، مما يدفع البعض - مثل الجنرال المتقاعد كين، وهو أحد مهندسي الحشد العسكري - للاستنتاج بأن الحركة الجهادية سيتم القضاء عليها قبل نهاية عام 2008.⁵⁰ غير أن أحد القادة العسكريين الأميركيين الكبار كان أكثر حذراً:

⁴⁷ تم تبني هذه الإستراتيجية بعد معارك الفلوجة عام 2004؛ وكانت مجموعة الأزمات قد وصفتها بإستراتيجية "التراجع، إعادة الانتشار، ومن ثم إفساد لأمر" *"In Their Own Words"*، Crisis Group، المصدر المشار إليه سابقاً، ص. 25.

⁴⁸ يمكننا القول أن القاعدة أصبحت أضعف وأنها فقدت حوالي 50 بالمئة من قدراتها، لكنها تبقى سواء على شكل مجموعات نشطة أو خلايا نائمة. لا زالوا يتحركون في غرب البلاد، في صلاح الدين وأماكن أخرى، وينتظرون إشارة استئناف القتال. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعيم قبلي بارز من الفلوجة، آذار/مارس 2008. إن فكرة الخلايا النائمة فكرة منكرة. "في الواقع، حقق الأميركيون نجاحاً كبيراً ضد القاعدة في الأنبار، وبغداد، وصلاح الدين، وديالي. لكن حتى الأنبار ستشهد عودتها العنيفة بعد أن تكمل خلاياها النائمة استعداداتها لمتابعة نشاطاتها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات الدولية مع محلل عراقي له صلات بالمسلحين، آذار/مارس 2008.

⁴⁹ "معظم الشخصيات القيادية في القاعدة، من الأجانب والعراقيين، غادروا المدينة أولاً إلى الضواحي ثم إلى كركوك وشمال العراق، حيث تشكل الجبال ملاذاً آمناً. وتركوا أتباعهم ومؤيديهم الذين اختفوا إلى الأرياف أو انضموا إلى مجموعات أخرى. ومعظم هؤلاء يبحثون عن عمل ويمكن أن ينضموا إلى أي جهة يمكن أن توفر لهم". مقابلة بالهاتف أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط شرطة في بعقوبة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁵⁰ شهادة أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 9 نيسان/أبريل 2008.

⁵¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد عسكري أميركي رفيع المستوى، بغداد، آذار/مارس 2008.

⁵² في أواخر عام 2005 ومطلع عام 2006، لاحظ جنود البحرية الأميركية في محافظة الأنبار سلسلة من الاشتباكات التي لم تشارك فيها أي من وحداتهم، والتي بدت خلالها العشائر تستعيد سيطرتها على أراضيها. باتت القوات الأميركية مقتنعة على نحو متزايد أن هذا يشكل دليلاً على الهوية التي تزداد اتساعاً مع القاعدة التي يمكن لها أن تستغلها لمصلحتها. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤولين عسكريين ومدنيين أميركيين، شباط/فبراير 2006. غير أن الأمر استغرقها حتى عام 2007 لتقوم بذلك على نحو مستدام. انظر: "الوس أنجيليس تايمز"، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2006؛ "التايمز"، 23 تشرين الثاني/نوفمبر 2006. لقراءة تحليل مفصل لسياسات الولايات المتحدة اتجاه العشائر، انظر: Michael Eisenstadt, "Tribal Engagement Lessons Learned," *Military Review*, September - October 2007, pp. 16-31.

⁵³ تقرير مجموعة الأزمات الدولية: *In Their Own Words*.

III. عودة العشائر إلى الصدارة

أ. من صدام إلى الاحتلال

خلال السنوات الأولى من حكم صدام، دفعت العشائر ثمن مركزية الدولة التي تبناها النظام، وأجندة التحديث، والأكثر أهمية من ذلك السيطرة الاجتماعية شبه الاستبدادية. وبمرور الوقت تغير دور العشائر. في الثمانينات تم تجنيد بعضها في أجهزة الأمن التي كانت تتوسع باستمرار، وقام النظام بتسليح عدد من العشائر الجنوبية خلال الحرب العراقية الإيرانية. في العقد التالي، ركز النظام على القبيلة وذلك بنشر رموزها في وسائل الإعلام المحلية. كان صدام يلتقي المشايخ بشكل منتظم وكافئ ولأهم بالامتيازات والجوائز ويخولهم بسلطات معينة مثل القيام بالأعمال الشرفية في مناطقهم وممارسة الأشكال الخاصة بهم من تطبيق العدالة - وهي أشياء كانت في السابق تقع حصراً ضمن صلاحيات السلطة المركزية.

لم يرق أي من ذلك إلى التمتع بسلطات الحكم الذاتي الحقيقي. بقيت السلطة القبلية بشكل كامل تعتمد على ما يمنحه النظام من امتيازات وحوافز. وكانت أي خطوة باتجاه التمرد تقابل بالقمع. كان المتوقع من العشائر أن تظهر ولاء تاماً للزعيم المستبد؛ كان السلاح يقدم لها عندما يكون ذلك ضرورياً تماماً، وكان يتم التغاضي عن التهريب والجرائم الصغيرة الأخرى ما دامت لا تؤثر في مصالح النظام، وكان الزعماء الذين يتمتعون بقدر من المكانة الشخصية يستبدلون بأزلام النظام. وكان يتوقع من العشائر أيضاً أن تسلم للسلطات أي شخص يعتبر تهديداً، منتهكين بذلك إحدى أكثر تقاليدهم قدسية وهي التضامن وحماية من يلجأ إليهم. وباختصار فإن كل السلطات التي استطاع المشايخ التمتع بها كانت منحة من النظام وليست مكتسبة تحققة القبيلة. على هذا النحو، لعب زعماء العشائر دورهم في القمع الذي كان يمارسه النظام. أدى ذلك إلى تلطيخ سمعتهم بين أقاربهم وأفراد عشائرهم، وترويج ألقاب مثل "شيوخ التسعينات"، وتعني شيوخ مصطنعين من إنتاج النظام و "مشايخ صنع تايوان" (أي أقل جودة من الشيوخ الأصليين).⁵⁶ بعد انهيار نظام البعث مباشرة، أصبحت درجة اختفاء العشائر مساوية لدرجة بروزها قبل عام

تعي الضرر الذي أحدثته والحاجة إلى التسوية.⁵⁴ علاوة على ذلك فإن مجموعات مثل الجيش الإسلامي تبقي في بياناتها الرسمية الباب مفتوحاً للتصالح في المستقبل.⁵⁵ وهذا يشير إلى أنه إذا انهارت الاتفاقيات الحالية بين الولايات المتحدة والعشائر وبعض المسلحين - وهو احتمال تتم مناقشته أدناه - فإن التيار الجهادي يمكن أن تكتب له حياة ثانية في العراق.

الحد الأدنى هو التالي، ليس هناك حل عسكري أو سياسي - بمعنى مفاوضات تؤدي إلى تسوية - لمسألة القاعدة في العراق. إن قدرتها على توليد ذاتها يمكن أن تتوقف فقط إذا تمكن جهاز أمن وطني متماسك من بسط سيطرته على كامل أراضي البلاد وعندما يصبح بوسع مؤسسات الدولة المشروعة والفعالة أن تقدم للعراقيين الذين لا دور لهم حالياً في العملية السياسية مستقبلاً يؤمنون به.

ولا يمكن التصدي لقضية القاعدة على وجه الخصوص، أو قضية السلفية الجهادية في العراق بوجه عام، دون التدقيق في أصولها ومصادر دعمها. في حين أن الولايات المتحدة توجه بانتظام انتقاداتها لدمشق بسبب عدم ضبطها للحدود، فإنها تبقى صامته حيال حقيقة أن معظم المتطوعين والتمويل والتدريب الذي ينتقل عبر سورية يأتي من الخليج. ثمة أسباب قوية تدفع واشنطن للمحافظة على علاقاتها الإستراتيجية القوية مع دول شبه الجزيرة الغنية بالنفط، غير أن هذا لا يعني أن تتجاهل الدور الذي تلعبه هذه الدول كحاضنات للتهديد الجهادي والذي نجحت هذه الدول في احتوائه على أراضيها لكنه يبقى حراً في الانتشار حيث تنشأ حالات فراغ أمني في المنطقة بأسرها.

⁵⁶ لمزيد من المعلومات عن مرحلة ما قبل 2003، انظر على سبيل المثال: Amatzia Baram, "Neo-Tribalism in Iraq: Saddam Hussein's Tribal Policies", 1991-1996, *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 29, No. 1 (February 1997), pp. 1-31; David Baran, *Vivre la tyrannie et lui survivre. L'Irak en transition* (Paris, 2004); Faleh A. Jabar and Hosham Dawod, *Tribes and Power. Nationalism and Ethnicity in the Middle East*. (London, 2003); and Judith Yaphe, "Tribalism in Iraq the Old and the New," *Middle East Policy*, Vol. 7 No. 3 (June 2000), pp. 51-58.

"في وقت من الأوقات كانت العشائر تتمتع بأهمية كبيرة. غير أن أهميتها تراجعت، وخصوصاً نتيجة الأفكار الاجتماعية والسياسية التي ظهرت مع نهاية العهد الملكي عام 1958. وفي إحدى المراحل في عهد صدام كان مجرد ذكر اسم القبيلة مع اسم الشخص محظوراً من قبل الجهاز البيروقراطي. لم يكن الحزب والنظام مستعدين لقبول أية منافسة. حتى عندما عاد صدام لاستغلال العشائر، وضع قاعدة بيانات كبيرة (مراتب) من أجل الاحتفاظ بالمعلومات مركزياً وتحقيق الحد الأقصى من السيطرة. ما تبقى من سلطة العشائر قامت السلطة المركزية بابتلاعها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أستاذ في جامعة بغداد، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2006.

⁵⁴ في هذا البيان يدعو أبو عمر البغدادي العرب السنة لوقف التعاون مع الولايات المتحدة ويعرض عفواً عن أولئك الذين يفعلون ذلك.

⁵⁵ انظر المقابلة التي أجريت مع أمير الجيش الإسلامي في جريدة "الحياة"، 22 شباط/فبراير 2008.

وبعض عشائر محافظة الأنبار (لأسباب ستتم مناقشتها أدناه)، وجدت القوات الأمريكية المتمركزة في المنطقة فرصة لتعزيز قوة العشائر. أثبتت هذه الرعاية الخارجية أنها حاسمة، حيث مكنت زعماء العشائر من حشد التأييد المحلي، وقدمت لهم وسائل إقناع أفراد العشائر بأنهم تمكنوا مرة أخرى بالارتباط براع قوي. وهذا بدوره ضمن ولاء العشائر للولايات المتحدة. ساعد هذا التحالف الجديد على ترجيح كفة الميزان لصالح العشائر؛ إذ قال أحد مشايخ عشائر الأنبار: "حتى ذلك الوقت، كانت القاعدة أفضل تسليحاً وقوة من العشائر. غير أن قرار الولايات المتحدة بمساعدتنا بوضع ثقلها وراء العشائر بدلاً من القتال بمفردها أدار الطاولة على القاعدة".⁶²

كان الشيخ عبد الستار بازغ فتيخان الريشاي من عشيرة البوريشة – والمعروف بستار أبو ريشة – أول من تعاون علناً مع القوات الأمريكية. في كانون الثاني/يناير 2007، استمال عدداً من الشيوخ الآخرين إلى وجهة نظره.⁶³ وانضمت إليه مجموعات أخرى لاحقاً (وبازدياد أعدادهم، ازدادت المنافسة فيما بينهم).⁶⁴ ردت القاعدة في العراق بقصف الرمادي وتقديم مكافآت كبيرة لقتل شخصيات العشائر واغتيال بعض قادتها؛ بمن فيهم أبو ريشة.⁶⁵

ولدت صحوات العشائر منذ البداية قدراً كبيراً من عدم الارتياح، حتى في صفوف ألد أعداء القاعدة في العراق. خشي الأعضاء الشيعة في الائتلاف الحاكم الذي يقوده المالكي أن تتحول الصحوات إلى ملاذ للمسلحين أو أن تصبح في النهاية في وضع يسمح لها بتحدي قبضة الأحزاب المهيمنة على السلطة.⁶⁶

في الأنبار، زادت حدة التوتر بين الصحوات وبين الحزب الإسلامي، وهو منظمة سنية لا تتمتع بدعم شعبي، لكنه رغم ذلك يسيطر على مؤسسات المحافظة منذ انتخابات عام 2005؛ وقد تركزت المنافسة على الموارد، وخصوصاً عقود البناء.⁶⁷ وقد عبرت مجموعات أخرى من المسلحين عن إدانتها، واصفة الصحوات بأنها عميلة للولايات المتحدة. متحدث باسم إحدى هذه المجموعات وصف الصحوات على أنها "بنية أميركية تجمع سلسلة من الانتصارات المحلية التكتيكية السطحية. المسألة في جوهرها أن

2003. في الرمادي التي كانت موطناً للعديد من العشائر القوية في ظل نظام صدام، بدأت الجدران تغطي بالكتابات المهينة للمشايخ، الذين كانوا قبل أيام مصدرراً للخوف والرعب. وكانت إحدى العبارات تقول "شيوخ العشائر عملاء"، مما يعطي انطباعاً بأن شيوخ العشائر كانوا مرتزقة مستعدين لبيع أنفسهم لمن يدفع أكثر – في يوم لصدام وفي اليوم التالي للمحتلين.⁵⁷ لم تكن هذه الظاهرة حكراً على العشائر السنية، من الواضح أن الاحتلال قوى مكانة الشيعة. رغم ذلك فقد وجد زعماء عشائر كبيرة في الجنوب يجلسون في قاعات استقبال فارغة (مضايف)، ينتابهم الرعب والدهشة.⁵⁸ سعيًا منهم لإعادة توكيد أهميتهم، شكل زعماء العشائر عدداً كبيراً من الجمعيات، والاتحادات، والجهات، والاتحادات، يدعي كل منها أنها تضم الآلاف (وفي بعض الأحيان الملايين حتى) من الأعضاء. غير أن هؤلاء الزعماء كانوا عادة يفتقرون إلى الشرعية وكان يجري تحديهم من قبل أبناء عشائرهم نفسها في حين أن الأعداد المضخمة للأعضاء كانت في الواقع غير ذات معنى.⁵⁹ في واقع الأمر، فقد كانت العشائر مهتمشة في العملية السياسية الناشئة في بغداد، مع وجود بعض الاستثناءات القليلة.⁶⁰ على الأرض، تم تجاوزهم بسرعة من قبل الجماعات المسلحة والميليشيات الشيعية المتنامية، وواجهوا خياراً بين الانسواء تحت هذه القوى الناشئة أو أن يستبعدوا تماماً من العملية السياسية.⁶¹ بدلاً من أن تكون العشائر وحدات مستقلة متلاحمة تستجيب لاحتياجات ومتطلبات أفرادها، عادت مرة أخرى لتقع في إطار الاستراتيجيات الزبائنية التي يصممها الآخرون. حيث أنها كانت قد فقدت كل مصادر القوة التقليدية، نظراً لتأسيس سلطتها على رعاية النظام السابق لها، فقد بقي مصير شيوخها معتمداً بشكل كلي على نشوء راع جديد لها.

ب. الصحوات العشائرية

عادت سلطة العشائر وأهميتها السياسية على نحو جاد حالما غيرت الولايات المتحدة تكتيكاتها ورعت جيلاً جديداً من الزعماء، الذين أطلق عليهم العراقيون فوراً لقب "شيوخ الألفينات". في أواخر عام 2006 ومطلع 2007، وعندما تقام التوتر بين القاعدة في العراق

⁵⁷ ملاحظات لأحد محلي مجموعة الأزمات زار العراق بصفة مختلفة، الرمادي، أيار/مايو 2003.

⁵⁸ ملاحظات لأحد محلي مجموعة الأزمات زار العراق بصفة مختلفة، مدينة الصدر والبصرة، أيار/مايو 2003. أحد زعماء العشائر، الذي كان أسلافه قد عملوا مع القوات الاستعمارية البريطانية عبر عن دهشته من أن أحفادهم كانوا يحاولون العودة إلى الاتصال به الآن – كما لو أن زعيم العشيرة، بعد قرن من الزمن، لا زال يمارس نفوذاً وسيطرة كبيرين على أفراد عشيرته. مقابلة أجراها أحد محلي مجموعة الأزمات زار العراق بصفة مختلفة، البصرة، أيار/مايو 2003.

⁵⁹ ملاحظات لأحد محلي مجموعة الأزمات زار العراق بصفة مختلفة، بغداد، أيار/مايو 2003.

⁶⁰ كان أول رئيس بعد سقوط صدام هو غازي الياور، وهو مهندس وابن أخ شيخ عشيرة شمر جربا. كان قد عاد لتوه من المنفى في السعودية. عدنان الجنابي، وهو اقتصادي وشيخ عشيرة الجنابيين، تمت تسميته وزير دولة دون حفيظة في أول حكومة بعد عام 2003. لم يتمتع أي منهما بأي سلطة حقيقية في ذلك الوقت، كما لم يحقق نجاحاً في الميدان السياسي منذ ذلك الوقت.

⁶¹ لمعرفة المزيد عن العشائر في منطقة البصرة الجنوبية، انظر على سبيل المثال تقرير مجموعة الأزمات رقم 67، بعنوان "أين يتجه العراق: دروس من البصرة، 25 حزيران/يونيو 2007".

⁶² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات أحد زعماء عشائر الفلوجة، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁶³ انظر *Los Angeles Times*, 23 January 2007.

⁶⁴ لمعرفة المزيد عن الاتهامات المتبادلة بين مشايخ الأنبار، انظر: *Inter Press Service*, 15 June 2007.

⁶⁵ انظر: *The New York Times*, 29 April, 2007.

The Christian Science Monitor, 26 June 2007, Associated Press, 13 September 2007.

⁶⁶ على حد تعبير أحد المحللين الأميركيين، "أصبحت الصحوات مصدر خوف لأمرء الحرب الشيعة للمرة الأولى وسمحت للولايات المتحدة بممارسة ضغط فعلي على الحكومة إنها توفر قوة مناهضة للميليشيات الشيعية. ويمكن لهذا أن يكون جيداً أو سيئاً. سيئاً، إذا فاقمت من الصراع الطائفي؛ وجيداً، إذا استعملتها الولايات المتحدة للتوصل إلى تسوية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، واشنطن دي سي، تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

⁶⁷ جواد كاظم، "عشائر الأنبار تكرر تهديدها بطرد الحزب الإسلامي بالقوة"، جريدة "الحياة"، 15 آذار/مارس 2008.

قتال القاعدة من أجل ضرب أي شخص لا يخضع لحكمهم. إذا وجدوا سلاحاً يقولون إنها القاعدة.⁷¹

ج. فهم ظاهرة الصحوات

يقول نقادها بأن الصحوات لا تدفعها المبادئ أو السياسة بقدر ما تدفعها المصالح المادية. يشيرون إلى مشاركة عبد الستار أبو ريشة بالسرقفة على الطريق السريع بين بغداد وعمان،⁷² وهي محاولة كانت تنافس مطامح الدولة الإسلامية للقاعدة. وطبقاً لمحدث باسم إحدى المجموعات المسلحة:

بحلول عام 2007 كان الجهد العسكري الأميركي قد فشل تماماً؛ كانوا قد خسروا محافظة الأنبار. بدأت الأمور تتغير لأسباب لا تتعلق بهم. كان الدافع إلى الصراع بين القاعدة وعدد من الشيوخ، وعلى رأسهم ستار أبو ريشة، هو التنافس على السيطرة والغنائم المتأتية من السيطرة على طريق عام بغداد - عمان. الدولة الإسلامية كانت تعتبر أن هذه ضريبة من حقها تحصيلها. عندما قتلت عدداً من منافسيها كانت قد عبرت خطاً أحمر وأطلقت دائرة من الانتقام. في البداية راقبت الولايات المتحدة الأمور دون أن تقوم بشيء. في وقت لاحق رأت أن هناك فجوة يمكنها أن تستغلها لتعميق الخلاف وذلك بمساندة العشائر. طبقاً لتقديرنا فإن ستار أبو ريشة تلقى عشرات ملايين الدولارات من الأميركيين لمقاتلة القاعدة.⁷³

بالنسبة لزعماء العشائر الذين فروا إلى المنفى بسبب المواجهة بين القاعدة في العراق والجماعات المسلحة، وفر ذلك فرصة فريدة لهم للعودة.⁷⁴ كما وفرت لهم فرصة للحصول على مكافآت مالية مجزية، سواء بتحويل الأموال التي كانت تمررها الولايات المتحدة من خلالهم (بشكل أساسي كمرتبات لمنطوعهم المسلحين).⁷⁵ أو بضمان الاستعادة من مشاريع إعادة الإعمار.⁷⁶

كان وجود القاعدة في العراق سبباً للأعمال. فقد نشرت المجموعة الفوضى وعدم الاستقرار وسعت لفرض احتكار على السيطرة -

الولايات المتحدة اشترت مجموعة من الزبانية بشرائها ولاء شيوخ العشائر.⁶⁸

لا شك أنه تم إضعاف الجماعات المسلحة - سواء كانت وطنية أو إسلامية - وبشدة بعودة العشائر إلى البروز. ويفضل معرفة العشائر بتفاصيل حياة السكان المحليين وبيئتهم، فإن بوسعها فرض قدر أكبر من السيطرة مما تستطيعه القوات الأميركية بمفردها. ومن ناحية أخرى فإن تحالفها مع الولايات المتحدة يجعل من الصعب عليها أن تتساهل حيال أي مقاومة. قال أحد الضباط السابقين الكبار الذين انضموا إلى المعارضة المسلحة:

استعملت قوات الاحتلال ما يطلق عليه الناس اسم الصحوة لكن ما أسميه أنا بالغفوة لأن هؤلاء يتعرضون للاستغلال ولا يريدون أن يروا بأنهم يخدمون الاحتلال الأميركي. لقد أضعفوا المقاومة الباسلة في الفلوجة. وبسببهم يترتب على مقاتلينا الأبطال أن يتواروا عن الأنظار ويبقوا في بيوتهم بانتظار ثورة العاصفة. سنقاتل حتى يتم طرد الغزاة. لدينا الكثير من المتطوعين والأسلحة، لكن الأكثر أهمية بالنسبة لنا هو حرية الحركة. وهنا فعلت الصحوات ما لم تستطع الولايات المتحدة فعله. لم نعد نستطيع التنقل في الفلوجة. نتحرك فقط في الضواحي، حول قرما أو الصقلاوية.⁶⁹

في البداية، أعطت الصحوات الانطباع بأنها ستركز بشكل حصري على مناطق بعينها دون أن تتدخل في ساحات معارك المسلحين غير الخاضعة للقاعدة.⁷⁰ رغم ذلك، ومع توسع الصحوات، ازداد الضغط على الجماعات المسلحة. وكما شرح مقاتل سابق:

أنا عالق؛ لا أستطيع أن أفعل شيئاً الصحوة تمشي بدأ بيد مع الأميركيين وهذا سيء للغاية بالنسبة لنا. لا شك أننا أصبحنا أضعف. لقد أصبح من الصعوبة التحرك في الفلوجة وفي سائر أنحاء المنطقة. لقد غادر البعض إلى بعقوبة والموصل، حيث تتوفر هناك حرية أكبر للمناورة، أما هنا فنحن في سجن مفتوح. لم يكن الحشد هو المشكلة. الأميركيون ليسوا خطرين جداً. لديهم التكنولوجيا لكنهم لا يعرفون المنطقة. نحن نعرف الأرض، نحن على أرضنا. إن المزيد من القوات كان يمكن أن يعني أهدافاً أكثر وربما أسهل. لكن أختنا خانونا. إنهم يستعملون ذريعة

⁷¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد مقاتلي المعارضة غير النشطين حالياً، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.
⁷² في ظل حكم صدام، كانت عشيرة أبو ريشة معروفة بالسيطرة على الكيلومتر 160، الذي يقال إنها أخطر منطقة على الطريق السريع بين بغداد وعمان.
⁷³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محدث باسم إحدى المجموعات المسلحة، آذار/مارس 2008.

⁷⁴ قال أحد المقاتلين السابقين، "تستند ظاهرة الصحوات إلى الجشع. لم يكن قادتها، الذين يتعاونون حالياً مع الولايات المتحدة، يجرؤون على المشي في شوارع الفلوجة أو الرمادي قبل عام. لقد عادوا على ظهر تحالفهم مع الولايات المتحدة ويسعون الآن للانتقام. إنهم يسعون لتحقيق مصالح أنانية فقط". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.
⁷⁵ طبقاً لأحد المحللين الأميركيين، "خصصت الولايات المتحدة موازنة قدرها 150 مليون دولار لدفعها للمجموعات العشائرية العراقية هذا العام، والشيوخ بأحدون 20 بالمئة من كل دفعة لمتمرد سابق - وهذا يعني أن قيادة 200 مقاتل تساوي أكثر من مئة ألف دولار سنوياً يحصل عليها زعيم العشيرة. Steven Simon, "The Price of the Surge. How U.S. Foreign Affairs Strategy is Hastening Iraq's Demise," *Foreign Affairs*, Vol. 57, No. 3 (May-June 2008), p. 65.
⁷⁶ استضاف الشيخ ستار أبو ريشة أول معرض لإعادة الإعمار في الرمادي.

⁶⁸ وتابع، "الهدف هو احتواء الحكومة والضغط عليها؛ واستعادة شيء من التوازن بين السنة والشيعة؛ وضمان فترة من الهدوء والتقدم الظاهري خلال حملات الرئاسة الأميركية؛ وتخفيف الأكلاف الباهظة للقوات العسكرية الأميركية وذلك بتفويض بعض المهام إلى العشائر الأقل إرهاباً". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محدث باسم إحدى الجماعات المسلحة، آذار/مارس 2008. في عريضة تلقفتها مجموعة الأزمات موقعة من زعماء عشائر، وأئمة ووجهاء من الأنبار، وصلاح الدين، وكركوك، وديالى ونيينوى، يدين هؤلاء عبد الستار أبو ريشة بوصفه خانناً ويحذرون من أي محاولات مماثلة.

⁶⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.
⁷⁰ "أنا أعرف عبد الستار أبو ريشة جيداً، وهدفه طرد الأميركيين من الرمادي - وأفضل طريقة لفعل ذلك هي استعادة السلام والأمن. كل من يريد قتال الأميركيين يمكنه القيام بذلك خارج المدينة." مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، أحد مؤيدي عبد الستار أبو ريشة، الرمادي، أيار/مايو 2007."

أن أطلق عليهم هذه الأوصاف، لكن هكذا أصبحت الأمور. سني، شيعي، "مثلث الموت" وما إلى ذلك: لم تكن أي من هذه المفردات تستعمل قبل الاحتلال. لقد أنتت من الخارج وأذهبت عقول بعض المنحرفين الذين شرعوا في الدمار وفي قتل أبناء أمتهم.⁸⁰

وصحيح أن الصحوات مدفوعة جزئياً بالسعي للحصول على السلطة والثروة، إلا أن جذورها أعمق من ذلك. لقد تسبب توسع القاعدة في العراق في الأضرار اضطراب اجتماعي عميق وتحدث العادات والأعراف الاجتماعية الراسخة وهددت نخباً اجتماعية هامة. وعلى حد تعبير مراقب محلي:

تطورت العلاقات بين القاعدة والعشائر المحلية من الترحيب النسبي إلى العداوة السافرة، تخترقها فترات من التحدى والتوتر. في البداية كان الترحيب يستند إلى الأنظمة القيمية التقليدية للعشائر إضافة إلى احترام العشائر لأشخاص – بعضهم أتى من مناطق بعيدة – مستعدون لقتال الغزاة. غير أن نظامهم القيمي لم يستطع احتمال ضيف يريد أن يسلب مضيئه من كل سلطة، حتى ولو كان ذلك باسم مقارعة العدو. لم يستطع زعماء العشائر قبول أن يتم إضعاف مكانتهم الاجتماعية والأخلاقية أكثر من ذلك.⁸¹

بات ينظر إلى التيار الجهادي بوصفه غريباً ليس فقط بسبب وجود المقاتلين الأجانب، بل أيضاً بسبب العراقيين الذين بدلاً من أن يعبروا عن احترامهم للشيوخ، اعتنقوا رؤية متشددة للإسلام كوسيلة لإخافتهم وترويعهم. شباب، وعمال غير مهرة أو فلاحين بسطاء قلبوا نظاماً اجتماعياً يسيطر عليه تقليدياً زعماء العشائر الذين يملكون الأراضي والنخب الحضرية المتمدنة، وقاموا بذلك بقتل أصحاب الامتيازات وفرض سلوكيات يزعمون أنها مستقاة من الشريعة. شرح أحد قادة الصحوات:

ليس لدينا شيء ضد المجاهدين الذين يقاتلون في سبيل الله. غير أن هؤلاء الأشخاص شوهوا فكرة الجهاد. استهدفوا المتقنين وزعماء العشائر، وخطوا الأمور وتدخلوا بكل شيء. حرّموا السجائر، وحتى أفتوا بأنه لا يجوز خلط الخيار بالبندورة. وفجروا أبراج الهاتف الخليوي. لم يعلمنا الإسلام قطع الرؤوس. أولئك الذين كانوا يرتكبون هذه الجرائم كانوا في الأغلب غريبين عن الفلوجة – ليس بالضرورة أجنب، لكن فلاحين جاهلين يقتلون الناس كما لو أنهم يذبحون حيوانات⁸². وكان مزعجاً على وجه الخصوص، طبقاً للبعض، محاولات القاعدة تعزيز سيطرتها من خلال الزواج من النساء المحليات.⁸³

⁸⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد زعماء الصحوة في الفلوجة، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁸¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعماء الصحوة في الفلوجة، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁸² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعماء الصحوة، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁸³ "أخبرني أحد الأشخاص بأن منطق القاعدة في العراق في علاقتها مع العشائر هو "نحن سنة، وأنتم سنة. الأميركيون والإيرانيون يساعدون الشيعة – دعونا نقاتلهم معاً". غير أن هذا التحالف المبني على المصالح والاستغلال المتبادل انهار عندما بدأت القاعدة بتطبيق الطريقة الاعتيادية عند القاعدة

وكل ذلك جعل من الصعب على أعمال الآخرين أن تزدهر. ونتيجة لذلك، فإن تخليص الأنبار من المجموعة، بحد ذاته، كان عرضاً مولداً للدخل بالنسبة للعشائر. علاوة على ذلك، فإن ظاهرة الصحوات كانت جذابة بالنسبة للشيوخ الشباب، الأقل بروزاً والذين كان يوسعهم تجاوز التراتيبات العشائرية وفرض سلطتهم بسرعة.⁷⁷

كما يعبر النقاد عن خشيتهم من أن الصحوات هي بشكل أساسي لاعب طائفي. ويجادلون بأن العشائر وقفت مع الولايات المتحدة للتصدي للشيعة، وإيران، وحكومة المالكي والتي لا تميز الصحوات بينها. وثمة شيء من الحقيقة في هذه التهمة. بدا العديد من زعماء الصحوات الذين تمت مقابلتهم مدفوعين بشكل رئيسي بالخوف من أجندة إيران ونفوذها في العراق.⁷⁸ وقال بعضهم إنهم يخطون لإعادة التأسيس للسيطرة السنية.⁷⁹

إلا أن الظاهرة أكثر تعقيداً. لا شك أن هناك دوافع طائفية؛ فالعديد من الشخصيات العشائرية ترفض الطائفية، إذ أن مفهومهم الأكثر ليبرالية للإسلام ينسجم أكثر مع أجندة وطنية علمانية بدلاً من الأجندة الأصولية الضيقة. إنهم يدينون في الغالب ما يعتقدون أنه حكومة تدعمها إيران ولا يدينون الشيعة بحد ذاتهم. قال قائد إحدى الصحوات:

على القاعدة أن تلوم نفسها إذا سمحنا للأميركيين بالمشي بحرية في شوارع الرمادي، أو بغداد أو أي مكان آخر. لقد أحدثت القاعدة الكثير من الاضطراب، فقتلت وهجرت أشخاص أبرياء. هم الذين زرعوا بذور الطائفية والفتنة. قبل ذلك كان السنة والشيعة أخوة كانوا يعيشون مع بعضهم البعض، من الشمال إلى الجنوب مع المسيحيين والأديان الأخرى. أنا لا أحب أصلاً

⁷⁷ شرح ديفيد كيلكولين، وهو مستشار للتحالف لشؤون محاربة المسلحين، ذلك بقوله: "تلعب الديناميات العشائرية الداخلية أيضاً دوراً. العديد من الزعماء الأكبر سناً، والذين يعتبرون أنفسهم الزعماء الحقيقيين للعشائر أو القبائل، هربوا من العراق في عام 2003 لأنهم كانوا ضالعين في التعامل مع صدام وهم الآن في المنفى في الأردن أو سورية. القادة الميدانيون هم من الجيل الشاب، الراغبين في تعزيز مواقعهم في وجه العجائز المقيمين في دمشق، والذين قد يرغبون في العودة ذات يوم. وبالتحالف مع الحكومة يكون هؤلاء قد ضمنوا مصدراً للرعاية يمكن أن يحولوه إلى أتباعهم، ويعززون مواقعهم الشخصية في السلطة. Small Wars Journal Blog, posted 29 August 2007, at <http://smallwarsjournal.com/blog/authors/dave-kilcullen/>

⁷⁸ لم يعد بلدنا لنا. عاصمتنا طهران. يقتل الفرس أطفالنا وشيوخنا. ولم نعد حتى نتحكم بنفطنا. نحن نتعرض لهجوم من الشرق ولن تفعل حكومتنا شيئاً حيال ذلك". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قادة الصحوات في الحبيانية وحبسة، كانون الأول/ديسمبر 2007. "لقد ارتكب جماعتنا أخطاء، لكن هذه الفرصة لا نستطيع تقييدها. لا نريد أن نسمح بعودة القاعدة إلى المنطقة، وفي نفس الوقت نريد محاربة الميليشيات الشيعية لأن إيران هي التي تعينهم. لن يكون هناك أي استقرار في العراق ما لم نتخلص من نفوذ إيران". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد إحدى الصحوات، التاجي، آذار/مارس 2008.

⁷⁹ قال أحد الشيوخ من صلاح الدين، "نحن بحاجة إلى الدعم الأميركي كي نغير من ميزان القوى في محافظة ديالى المتنازع عليها. ومن هناك بإمكاننا توسيع نفوذنا إلى واسط، التي كانت دائماً محافظة هادئة – ونقطة ضعف شيعية في الجنوب. عندها سنكون في موقع قوي لنشدد الخناق على معقل الفرات الأوسط مثل كربلاء والنجف. وعندما نفعل ذلك يصبح بإمكاننا أن نقطع بغداد عن المناطق الشيعية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعيم عشائري من صلاح الدين، تموز/يوليو 2007.

خلال ما يقارب العام، تتطوع حوالي 91,000 عراقياً للتعاون مع القوات الأميركية - وهو رقم يتضمن أعضاء الصحوات والمسلحين السابقين الذين تشير إليهم الولايات المتحدة معاً "بأبناء العراق".⁹¹ إن القوات الأميركية الإضافية وإضافة إلى التكتيكات الجديدة سهلت هذا التحول السريع. أحد مهندسي الحشد قدم قراءة متفائلة للغاية:

لقد اعتمد هذا النجاح بشكل جوهري على الممارسات الراسخة في مقاومة التمرد، من أجل حماية الناس، وبما يكفي من القوات العراقية والأميركية. وكان هذا هو المحفز لحركة الصحوة السنية واسعة الانتشار... ما حدث فعلاً هو أن الشيوخ وزعماء العشائر قرروا بأنهم لا يستطيعون تحقيق أهدافهم السياسية مع القاعدة في العراق في محاربة الولايات المتحدة والحكومة العراقية. وهكذا فإن الغالبية العظمى من الزعماء السنة اتخذوا أربعة قرارات إستراتيجية للقيام بما لي: 1. إيقاف العنف، 2. الضغط على القادة الأميركيين للضغط على الحكومة العراقية؛ 3. تحقيق المصالحة مع الحكومة العراقية، 4. تقديم أبنائهم للعمل معنا ومع العراقيين للمساعدة في هزيمة القاعدة في العراق وحماية شعبهم... من الواضح أن المصالحة بين السنة والحكومة العراقية قد تحققت، وأن الحكومة تقدم المساعدة.⁹²

رغم ذلك، يبقى من غير الواضح في هذه المرحلة مدى نجاح تجربة الصحوات في النهاية. تشير الحكومة العراقية، والأحزاب الشيعية، والعديد من المرشحين إلى أنها تشكل تهديداً للنظام الحاكم، على الأقل لأن العشائر التي انبثقت فيها الحياة من جديد يمكن أن تقاوم سلطة الدولة. وبالفعل فقد تمتع العشائر عن التخلي عن أية امتيازات مكتسبة للسلطات المركزية، مما سيسهم في تقسيم العراق.⁹³ وستتفاقم المشكلة، إذا فشلت الحكومة في دمج أفراد العشائر في أجهزة أمنها.⁹⁴

في حين أن هذا التقييم دقيق إلى حد بعيد، لكن ينبغي أن يؤخذ بقدر من الحذر. الأموال التي تقدمها الولايات المتحدة تستعمل بشكل رئيسي لدفع الرواتب أو يتم تحويلها إلى منفعة شخصية. لم تعط العشائر كميات سلاح كبيرة، وخصوصاً أسلحة ثقيلة، حيث أن المهمة الرئيسية للصحوات هي القيام بالأعمال الشرطية، وحيث تتولى الولايات المتحدة القيادة حالما يندلع قتال خطير. ومن حيث أن أفراد الصحوات يعرفون التقنيات الأساسية للقتال، فإن ذلك لم

على وجه الإجمال فإن القاعدة في العراق لم تسبب المشاكل فقط للنخبة العشائرية. لقد خلقت بنیان نظام اجتماعي بأكمله، مما ولد ردود فعل محافظة للمحافظة على الذات بين الشيوخ. كما علق أحدهم، "نحن ضد الاحتلال، لكن القاعدة تبادت. لم يقتلوا فقط زعماء بل المثقفين أيضاً. أضعفوا المجتمع بشكل عام باغتيال رجال الشرطة لأنهم يمثلون القانون. إلا أن القانون والشرطة هما أساس الاستقرار. وفي المحصلة نحن نريد الاستقرار".⁸⁴ طبقاً لإحدى شخصيات الصحوة فإن هذا التناظر بين رؤية القاعدة في العراق والمصالح الطائفية كان أمراً حاسماً في إقناع الولايات المتحدة بأن تحالفها مع العشائر سيكون مستداماً أكثر منه تكتيكاً قصير الأجل.⁸⁵

هذا المزيج بين التوترات العميقة، والدوافع المادية والانتماءات الطائفية تفسير لماذا، ورغم مقاومة القاعدة القوية والشرطة في كثير من الأحيان، فإن صحوات الأنبار أحرزت وعلى نحو مضطرب تقدماً في سائر أنحاء المحافظة. وعندما بدأت هذه بجني ثمار التعاون مع الولايات المتحدة، شجعت عشائر أخرى كي تحذو حذوها، مما أدى إلى نشوء دينامية أوسع وأكثر قوة. وتم تكرار نموذج الأنبار في معاقل القاعدة في جنوب بغداد⁸⁶ إضافة إلى تكريت،⁸⁷ وديالى⁸⁸ وفي أماكن أخرى. وفعلت العشائر الشيعية الشيء ذاته في الفرات الأوسط.⁸⁹ في أقصى الشمال (حول الموصل بشكل خاص) وأقصى الجنوب، من جهة أخرى، تتم مقاومة الصحوة العشائرية في الوقت الحالي وعلى نحو فعال، من قبل الأكراد والصديريين على التوالي.⁹⁰

بتعزيز التحالفات من خلال الزواج". David Kilcullen's Post on the Small Wars Blog.

⁸⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعماء الصحوة في الفلوجة، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁸⁵ "هناك انقسام واضح نسبياً بين العشائر والقاعدة. وساعد هذا في توليد الثقة لدى الأميركيين، ونتيجة لذلك أصبح من الأسهل أن يعطونا الأسلحة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعيم عشائري من الفلوجة، عمان، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁸⁶ أنظر: Nancy A. Youssef, "U.S. finds a way to pacify Iraqi town by using cash," *McClatchy Newspapers*, 12 November, 2007

⁸⁷ "تحاول الولايات المتحدة استمالة الشيوخ في أرض الحسين. على أمل أن يحققوا نفس المكاسب التي حققوها في الأنبار، وقع المسؤولون الأميركيون على صفقات بقيمة 5.2 مليون دولار مع رجال العشائر في صلاح الدين". *Los Angeles Times*, 14 November 2007.

⁸⁸ "تحالف عشائري في ديالى لتطهيرها من القاعدة"، "الحياة"، 10 أيار/مايو 2007.

⁸⁹ تقرير مجموعة الأزمات، "الحرب الأهلية في العراق". "يحاول العديد من شيوخ العشائر في الجنوب التقرب من الأميركيين بغية تعزيز قوتهم ومشاركتهم في إعادة بناء البلاد. هم لديهم مصالحهم، والأميركيون بطاقة رابحة يمكن أن يستعملوها لتحقيق أهدافهم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع سياسي شيعي رفيع المستوى، بغداد، أيلول/سبتمبر 2007.

⁹⁰ "في الناصرية قام زعماء العشائر بتأسيس صحواتهم. ومؤخراً شاركوا حتى في المواجهة مع طائفة المهذوية (وهي حركة صغيرة تؤمن بشعر الفوضى كطريقة لتسريع ظهور الإمام المهدي)، وبالتنسيق مع الجيش والشرطة. كما حاولوا التواصل مع مقاتلي جيش المهدي وكسبهم إلى جانبهم شريطة أن يقسموا بمين الولاء للصحوات وقوات الأمن العراقية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع رجل أعمال محلي وأحد أتباع السيستاني، الناصرية، كانون الثاني/يناير 2008.

⁹¹ "أبناء العراق" هو تعبير صاغه المسؤولون الأميركيون لوصف رجال العشائر والمسلحين السابقين الذين يعملون حالياً مع التحالف، وعددهم يقارب 72,000 من بين 91,000 (19 بالمئة منهم من الشيعية). شهادة الجنرال بترابوس أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 8 نيسان/أبريل 2008.

⁹² الجنرال المتقاعد كين في إفادته أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 9 نيسان/أبريل 2008.

⁹³ يقدم سقنين سايمون هذه المجادلة القوية في مقالته المشار إليها سابقاً "The Cost of the Siege". لاحظ أحد المتعاطفين مع المسلحين قائلاً: "القاعدة هي أن تدافع العشائر عن أفرادها وأرضها. ومن وجهة نظر علم الاجتماع فإن العشيرة لا تتسجم مع الدولة الحديثة. أدى انهيار الدولة العراقية إلى إنكفاء غرائز جديدة بين العشائر تقوم الحكومة العراقية والولايات المتحدة باستغلالها. إذا حاربوا ضد المقاومة فإنهم يكافؤون بمنحهم مزيداً من الاستقلال والامتيازات والمال. لا أستطيع أن أرى كيف يمكن مواعة ذلك مع إعادة بناء دولة فعالة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط سابق تربطه علاقات بالمجموعات المحلية المسلحة، الفلوجة، أيار/مايو 2007.

⁹⁴ أنظر: "Iraq After the Surge" Paper for the Institute of Diplomatic Studies, Riyadh (February 2008).

الذين يصفون أنفسهم على أنهم وطنيين والذين حتى الآن يرفضون الاحتلال والإسلاميين المستعدين لمحاربتهم على أساس ديني، مستأوون أيضاً من قمع العشائر بكافة أشكال المقاومة. وإذا توسع نفوذ العشائر أكثر مما ينبغي فإنها يمكن أن تخسر الدعم الشعبي. علاوة على ذلك، فإن بعض أفراد النخبة الحضرية القديمة في الفلوجة يشعرون بالتهديد مما يرون فيه مجموعة من الزعماء العشائريين المتخلفين والانتهازيين الذين يسيطرون على المدينة من خلال الميليشيات التي يتم تجنيد أفرادها في الأرياف.⁹⁸ في حي الجولان، الذي كان في وقت من الأوقات أحد معاقل القاعدة، ينزع المواطنون الذين يعتبرون أنفسهم أبناء المدينة الحقيقيين ومالكها الشرعيين إلى رفض الميليشيات العشائرية بوصفها جسماً غريباً.⁹⁹

إن تصوير الولايات المتحدة للصحوات بوصفها "مواطنين محليين مهتمين يدافعون عن أحيائهم" دقيق في بعض الأماكن وغير دقيق في البعض الآخر. على سبيل المثال، عبّر سكان بعقوبة عن عدم ثقتهم بالعدد الكبير من الوجوه غير المعروفة التي تسير في دوريات في شوارعهم.¹⁰⁰ الموصل، حيث لا توجد الصحوات بحد ذاتها لكن حيث لجأت أجهزة الأمن إلى تعيين عدد كبير من أفراد العشائر في المناطق المحيطة بالمدينة، تشهد توترات مماثلة.¹⁰¹ ومع وصول أموال إعادة الإعمار، وتدفق الوظائف في أجهزة الأمن المحلية وفي المؤسسات المدنية إلى نخبة عشائرية جديدة – وهي شريحة صغيرة من السكان السنة – فإن الاتهامات بالفساد والتعاون المصلحي مع المحتل تنتشر بسرعة.

نشأت الصحوات واكتسبت شرعية بشكل أساس كرد فعل على القاعدة في العراق. إلا أنه وبترجع التهديد الذي يشكله التيار

يكتسبه خلال التطورات الأخيرة بل من خدمتهم العسكرية قبل عام 2003، وخلال العديد من الحروب التي خاضها العراق، وبالنسبة للعديد منهم المشاركة لمدة خمس سنوات مع الجماعات المسلحة.

بعبارة أخرى فإن ظاهرة الصحوات لم تسهم في حد ذاتها بتحويل العشائر إلى تهديد خطير، فهي ليست في طريقها لتصبح قوة مستقلة مكتفية ذاتياً. على العكس، فهي تبقى معتمدة بشكل كامل على راع خارجي، في هذه الحالة الولايات المتحدة، التي ومن خلال تقديم الحماية والتمويل، مكنتها من استعادة بعض التلاحم. إذا أنهت الولايات المتحدة دعمها فجأة، فإن الأوضاع ستعود إلى الوضع الذي كان سائداً قبل الوضع الراهن: سيتم استهداف الشيوخ من قبل المسلحين للانتقام منهم أو أن هؤلاء الشيوخ سيعودون إلى منافعهم الأكثر راحة في الخارج: أما ميليشياتهم فإما ستتبرخ أو تندمج بالجماعات المسلحة. دون الدعم الأميركي فإن الصحوات ستتلاشى أو تقدم نفسها لم يدفع أكثر.

يتمثل أحد السيناريوهات في أن تقوم الحكومة العراقية – التي تمتلك موارد هائلة غير مستثمرة – بدفع أعلى سعر. غير أنها وبسبب خوفها من نشوء لاعب سني أكثر تنظيمياً وشرعية ينبغي إدماجه في النظام السياسي، فإنها تبدو غير راغبة في القيام بذلك. وبالنتيجة فإن الخطر الأكبر يتمثل في أن تلجأ العشائر إلى الدول المجاورة طلباً للمساعدة، وبالتالي تصبح أداة في مفاخرة الطبيعة الإقليمية للصراع. يمكن للدول العربية الساعية إلى زيادة نفوذها، والحد من نفوذ إيران أو الساعية إلى تنفيذ أجندة طائفية سنية أن تأخذ العشائر من حيث تتركها الولايات المتحدة.⁹⁵

وباختصار فإن الحشد العسكري أضاف لاعباً جديداً إلى نزاع هو أصلاً متعدد المستويات.

ويطرق أخرى أيضاً، أدت ظاهرة الصحوات إلى توليد خطوط تماس جديدة ومصادر كامنة للعنف. أولاً، لقد كانت الولايات المتحدة أكثر كرمًا بالضرورة مع عشائر معينة منها مع عشائر أخرى. وبالتالي فإن ما ينتج عن ذلك من إعادة توزيع للسلطة يولد بالتأكيد تنافساً وخصومة، مما سيؤدي بالتالي إلى نزاعات مكثفة⁹⁶ وهي حاصلة تعترف بعض المجموعات المسلحة أنها تعتمد عليها وتترقبها.⁹⁷

ثانياً، إن تمكين الشيوخ ينظر إليه بقلق من قبل عدد من المكونات المحلية الهامة. رغم أن هجوم القاعدة في العراق على العادات القبيلة قوبل بالرفض من قبل السكان بشكل عام، فإن هذا لم يترجم إلى دعم كامل للسلطة العشائرية. عندما يسعى الشيوخ لفرض وتوسيع حكمهم، فإن فورة اجتماعية أخرى قد تكون قيد التكوين.

⁹⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل سعودي، الرياض، نيسان/أبريل 2008.

⁹⁶ لظُر على سبيل المثال *Los Angeles Times*, 21, 22 January 2008 في سامراء يعود الفضل في تحسين الأحوال الأمنية إلى الدور الذي تلعبه عشيرة الأبويز، التي فرضت نفسها من خلال مجلس الصحوة المحلي. إلا أن أفرادها ينشطون بشكل رئيسي في المناطق التي تشكل معاقل تقليدية للعشيرة ويواجهون استياء في أجزاء أخرى من سامراء ومن عشائر منافسة أخرى. مقابلة بالهاتف أجرتها مجموعة الأزمات مع رجل أعمال من سامراء، آذار/مارس 2008.

⁹⁷ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم جبهة مسلحة، آذار/مارس 2008.

⁹⁸ لقد وجد الأميركيون حلفاء متحمسون في هذه العشائر لا يهاجمون فقط القاعدة بل أي ضابط سابق لا يتعاون معهم ومع المحتلين. أنا من فئة الوطنيين، وأنا الآن عاطل عن العمل ولا أملك شيئاً بسبب هؤلاء العرب (تعبير عرب في هذا السياق هو من قبيل الاستهانة وهو يشير إلى سكان الأرياف) من البوعلوان، وحبسة وغيرهما. هؤلاء الانتهازيون حتى لا ينتمون إلى الفلوجة، وهم الآن يحكمون حياتنا هنا". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع جنرال سابق له صلات بالمعارضة المسلحة، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

⁹⁹ "يبقى الجولان معلقاً. لقد تم تدمير جزء كبير من الحي في مواجهات عام 2004، ولم يتم فعل الكثير منذ ذلك الحين، وتزداد الانتقادات الموجهة إلى العشائر. يقول الناس هؤلاء العرب ليسوا من الفلوجة أصلاً وما يدفعهم هو مصالحهم الشخصية فقط. إنهم يجنون الكثير من المال، لكن أنظر إلى شوارعنا. القمامة تتراكم، وليس لدينا عمل، ولا كهرباء. ثمة صراع طبقي من نوع ما يمور تحت السطح، والفجوة بين الصحوات والسكان المحليين تتسع. يمكن لأي شخص في الفلوجة أن يرى أن القتال معلق مؤقتاً فقط". اتصالات أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع صحفي من الفلوجة، شباط/فبراير 2008.

¹⁰⁰ "هؤلاء الشباب الذين يحافظون على الأمن لا يتمتعون بأي انضباط وليس لديهم هيكلية أو تراتبية. يمكن أن يلجؤوا إلى الخطف إذا احتاجوا المال أو لأي سبب آخر. مشكلتنا معهم هي أننا لا نعرفهم ولا نعرف من أين أتوا. العديد منهم أتوا من القرى المحيطة بالمدينة ومن العشائر. لكن لا أحد يعرف من يقودهم وما هي هيكليتهم التنظيمية. يسير الأميركيون دوريات ويفهمون نقاط تفتيش في مداخل المدن لكنهم يتركون الطرقات الفرعية والأحياء لهؤلاء المطوعين الذين لم يتم تجنيدهم محلياً بالضرورة." مقابلة بالهاتف أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في جامعة ديالى، تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

¹⁰¹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات الدولية مع سكان محليين، الموصل، كانون الثاني/يناير – شباط/فبراير 2008.

IV. وضع الجماعات المسلحة السنية

أ. انتكاسة في حظوظ الجماعات المسلحة

تعرض نشاط الجماعات المسلحة – الذي بدأ في عام 2006 واثقاً للغاية، وموحداً إلى حد بعيد أو تسيطر عليه حفنة من المجموعات الرئيسية والذي كان يصبح أكثر تقدماً وتعقيداً على نحو مضطرب – لهزة عفيفة جراء التطورات الأخيرة.¹⁰² ما أبقي هذا النشاط موحداً هو وضوح الأهداف المشتركة (مقاومة الاحتلال، إضافة – وعلى نحو متزايد – الميليشيات الشيعية) واحتمال تحقيق هذه الأهداف. غير أن التنافس الشخصي إضافة إلى الانقسامات الدينية والأيدولوجية (بما في ذلك الإسلامي مقابل البعثي والسلفي مقابل الصوفي)¹⁰³ عادت إلى الظهور على السطح مما نتج عنه استتعال الانقسام الداخلي. أدى الخلاف بين القاعدة في العراق وباقي أطراف المسلحين السنة إلى كسر التابو المتمثل في النزاع الداخلي وكان لذلك آثار واسعة الانتشار. إضافة إلى إضعاف نشاط المسلحين، فقد وجه الانشقاق ضربة قاسية للوحدة التكتيكية التي سادت حتى عام 2007، مما فاقم في التوترات التي كانت تعتمل تحت السطح.

من حيث الأصل فإن الخلاف مع القاعدة في العراق لم يكن بسبب التركيبة الأجنبية المفترضة للتنظيم ولا بسبب منظورها السلفي. ما أدى إلى تشطي الحركة الجهادية هو المفاهيم المختلفة تماماً لطبيعة المعركة في العراق. إحدى شخصيات المعارضة المسلحة تشرح ذلك:

إن سبب الانقسام الحقيقي داخل المقاومة ليس الدين ولا القومية. لقد أصبحت القاعدة عراقية الآن، وتوزع المجموعات الأكبر إلى تبني جزء كبير من منظورها السلفي. المشكلة هي أن القاعدة ترى في العراق ساحة معركة، في حين أن الآخرين يرتبطون بوحدة العراق ومصيره. يدور الصراع حول الإسلامية العالمية أو العولمية مقابل الإسلامية الوطنية. وشعارنا هو: نهاية البندقية القلم، أي أن المقاومة في النهاية ينبغي أن تخلي مكانها للسياسة؛ في حين أن شعار القاعدة هو نهاية البندقية المدفع، مما يعني أن القتال ضد الكفار والمرتدين يمكن فقط أن يتصاعد.¹⁰⁴

لاختلاف الآراء تبعات عملية. كانت أساليب القاعدة في العراق مفرطة في الوحشية، حيث أن هدفها هو تغذية الصراع الطائفي الذي يزداد ضراوة، والخوف وعدم الاستقرار. استهدفت القاعدة بشكل منتظم المدنيين الشيعة، وقتلت رجال الشرطة وغيرهم من الموظفين المدنيين، حتى أنها فرضت نظاماً قسرياً على المدنيين السنة أجبرهم على الهرب. لا يمكن لهذا أن يؤدي إلى النصر كما تعرّفه المجموعات الوطنية، بل كان وصفاً لفوضى وسفك دماء لا

¹⁰² للحصول على تحليل للمعارضة المسلحة خلال المرحلة السابقة أنظر

تقرير مجموعة الأزمات: "In Their Own Words".

¹⁰³ "أعطى التراث الصوفي الشعبي في الإسلام الأولوية للأوجه الروحية من الدين والسعي (الغيبي والغنوصي في كثير من الأحيان) لتحقيق المعرفة الفردية بالخالق مقارنة بالاهتمامات الدنيوية مثل القواعد والقوانين." تقرير مجموعة الأزمات رقم 37، 2 March 2005, p. 2.

¹⁰⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم جبهة الجهاد والإصلاح، نيسان/أبريل 2007.

مساواة الخطر الإيراني بخطر القاعدة. ادعى أحد المتعاطفين مع المعارضة المسلحة:

ليس الحشد هو الذي غير الأمور. ما كان يمكن لعدد صغير إضافي من الجنود أن يضعف المقاومة. إن ما يسمى نجاح الحشد مرده التحولات بين السنة. قررنا أنه من الأفضل التصدي لمخططات إيران بالنسبة للعراق. إلا أن تعاوننا مع الولايات المتحدة مؤقت ولا يمكن أن يكون عمالة. نحن نبقى معارضين للاحتلال؛ ولا ننسى الهدف النهائي وهو إخراج قوات الاحتلال.

إلا أنها في الوقت الحاضر تلعب دوراً إيجابياً. إن مقاومة الاحتلال لا تترجم حصرياً على أنها مقاومة مسلحة. قد يتوجب في بعض الأحيان وضع السلاح جانباً واختيار إستراتيجية طويلة الأمد. بعضنا يعارض هذا، لكنني أعتقد أن الوقت قد حان لإدراك أن أمامنا عدو أكثر خطورة من الولايات المتحدة.

هناك أدلة كثيرة على أهداف إيران في الهيمنة، بما في ذلك سلوك حلفائها داخل النظام السياسي وتقديمها للسلاح والمال للمجموعات المسلحة. نعتقد بأن إيران كانت تمول مجموعات إرهابية مثل القاعدة. لماذا قررنا في مرحلة معينة أن نقف مع الأميركيين بدلاً من العراقيين الذين ينتمون إلى القاعدة أو يعملون باسمها؟ لأننا فهمنا أن قتل زعمائنا الدينين، ومقاتلينا وشعبنا يمكن فقط أن يخدم أجندات أجنبية. أدركنا أنه لا يمكننا العمل مع القاعدة، وأدرك الأميركيون أنهم لا يستطيعون العمل بدوننا.¹⁰⁹

أدى التعاون المتنامي بين بعض المجموعات المسلحة والولايات المتحدة إلى رفع التابو المفروض مسبقاً على التفاوض مع المحتل. كما أنه شجع التركيز بشكل أكبر على الأوجه السياسية من الصراع بدلاً من الأوجه العسكرية. في أيار/مايو 2007، قال أحد المراقبين العراقيين:

أساليب القاعدة خدمت الاحتلال وذلك بتقسيم المقاومة، ودعم بعض المجموعات المسلحة ضد مجموعات أخرى ومن ثم إضعافها جميعاً. أدى الإحباط المتزايد من نكتيكاتها في الهيمنة والسيطرة بالمقاومة إلى قبول مبدأ التفاوض مع الولايات المتحدة - مباشرة أو بشكل غير مباشر - بين زعماء الفصائل وقوات الاحتلال بذريعة محاربة التهديد الفارسي. لم تعد معظم الفصائل جديّة في محاربتها للاحتلال. إنها تركز على الأهداف السياسية وتشكيل جبهات واسعة.¹¹⁰

بين أعضاء الجيش الإسلامي - إحدى أكبر مجموعات المعارضة المسلحة وأكثرهما فعالية - اختار العديدون التعاون مع الولايات المتحدة، في حين انشق عناصره الأكثر تطرفاً واختاروا أسماء أخرى في أماكن أخرى (مثل الفرقان في المدائن والفتح المبين في

نهاية لهما. وقد يكون الأكثر أهمية ربما هو أن محاولة القاعدة في العراق احتكار العمل المسلح ولد رد فعل من المجموعات التي فرض عليها الخروج من معازل سابقة لها أو واجهت منافسة أكثر حدة، بما في ذلك اغتيال مقاتليها. في حين يعزو بعض المراقبين الانقلاب على القاعدة إلى عوامل أخرى، وخصوصاً عدم قدرة الحركة على إيقاف التوسع المذهل للمليشيات الشيعية خلال معركة بغداد طوال عام 2006 ومطلع 2007.¹⁰⁵

الجماعات المسلحة ترفض هذا التفسير:

يعتقد البعض أو يزعمون بأن فشل القاعدة في منع المليشيات الشيعية من الاستيلاء على العاصمة أضعف المقاومة بأن وجودها لا يحقق أي هدف. هذا غير صحيح. خسرتنا العديد من الأحياء المختلطة بالتأكيد، إلا أن المعازل السنية بقيت عصية على الدخول. في أوج معركة بغداد، بقيت أحياء العامرية، والغزالية والدورة مناطق لا يمكن للقوات الأميركية ولا لقوات الأمن التي تخترقها المليشيات ولا لجيش المهدي نفسه دخولها. ومرد ذلك إلى صمود القاعدة. المفارقة أن قوة القاعدة في بغداد أدت إلى الانقسام، فبفرض سيطرتها على مناطق كانت في السابق تحت سيطرة مجموعة أخرى من المسلحين دفع هذه المجموعات إلى الوقوف مع الولايات المتحدة. إن التنافس في العامرية هو الأصل الحقيقي للصراع بين الجيش الإسلامي والدولة الإسلامية.¹⁰⁶

أنعشت التوترات والخلافات (أو تم تغليفها ب) مناظرات نظرية حول تراتبية الأعداء.¹⁰⁷ من أجل تبرير قرارها بمحاربة القاعدة في العراق، وبالتالي الوقوف مع الولايات المتحدة، جادلت بعض المجموعات المسلحة بأنه من أجل مستقبل العراق السياسي، ينبغي أن تعطى الأولوية لهزيمة التهديد الأكثر مباشرة وضغطاً، أي إيران. لقد كان هناك إجماع دائماً على أن إيران تشكل عدواً خطيراً؛ غير أن ذلك استعمل الآن لتبرير التحالف المؤقت مع الولايات المتحدة، وهذا بالطبع مرفوض تماماً من قبل القاعدة. وعلى حد تعبير محلل عراقي قريب من المعارضة المسلحة فإن "المقاومة الوطنية الإسلامية مهتمة بوحدة العراق وشخصيته العربية، في حين أن القاعدة في العراق تؤمن بحرب وجودية مع الصليبيين الغربيين".¹⁰⁸ ولشرح هذا التحول، ذهب بعض المسلحين إلى حد

¹⁰⁵ تطور هذه الرواية ستيغفان بيدل في المرجع المقتبس سابقاً بالنسبة لمعركة بغداد، أنظر تقرير مجموعة الأزمات، "الحرب الأهلية في العراق".

¹⁰⁶ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، نيسان/أبريل 2008. في عام 2007 شاركت القوات الأميركية في قتال عنيف في كل هذه الأحياء، مما يعني أن هذه الأحياء لم تكن منيعة على دخول القوات الأميركية، رغم أن الولايات المتحدة لم تستطع أن تهزم المقاومة هناك إلى أن تحول السكان المحليون إلى جانب الولايات المتحدة.

¹⁰⁷ لا شك أن ثمة انقساماً داخل المقاومة فيما يتعلق بماهية الهدف ذي الأولوية: إيران أو الولايات المتحدة. نجحت الولايات المتحدة في إقناع العديدين منا بأن الجواب هو إيران. إذا استطعنا التغلب على هذا الانقسام، فإن الولايات المتحدة ستعزز قريباً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدّث باسم جبهة الخلاص الوطني، آذار/مارس 2008.

¹⁰⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل عراقي ذي صلات وثيقة بالمسلحين، آذار/مارس 2008. مسؤول في حزب البعث ردد هذا الرأي: "القاعدة ترى في العراق ساحة معركة في حربها الوجودية مع الولايات المتحدة. وهذه بالتحديد هي رؤية جورج بوش أيضاً، الذي يريد أن يحارب الإرهاب في العراق بدلاً من أن يحاربه على الأرض الأميركية؛ مقابلة

أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع المستوى في حزب البعث (فرع عزرة الدوري)، تموز/يوليو 2007.

¹⁰⁹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع إحدى الشخصيات العشائرية التي تتمتع بصلات بكتائب ثورة العشرين، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007. يدعي مسؤولون ومحللون سعوديون أيضاً أن إيران تساعد القاعدة، مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، الرياض، نيسان/أبريل 2008.

¹¹⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مراقب عراقي ذي صلات وثيقة بالمعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008.

المتحدة درساً من هذا وشرعت في نشر هذا النموذج في أماكن أخرى.¹¹⁴

أسهم تراكم مثل هذه الصفقات المحلية إلى انخفاض حدة العنف. كما في حالة الصحوات، فإن القوات الأميركية هي المستفيد الأكبر، حيث يصبح بإمكانها الاستفادة من المعارف المعمقة التي يمتلكها المسلحون حول الأرض والبيئة البشرية. ومن جهتها، فإن المجموعات التي تتعاون مع الولايات المتحدة تتمكن في النهاية من ممارسة قدر أكبر من السيطرة على المناطق المعنية.¹¹⁵ وغالباً من خلال اللجوء إلى أساليب عنيفة واعتباطية تتجاوز العمليات التي تستهدف القاعدة في العراق.¹¹⁶ وتؤدي المقاومة التي تبديها مجموعات المتمردين الأخرى إلى مواجهات دموية تقتع المجموعات التي تريد متابعة القتال بالاختباء. لا يتمثل التحدي الجوهري بالنسبة للولايات المتحدة فقط في إدماج المسلحين السابقين الذين تحولوا إلى "أبناء العراق" في أجهزة الأمن أو توفير وظائف بديلة لهم. الحقيقة أيضاً هي أن المعارضة المسلحة لم تهزم بعد وأن المشكلة التي تشكلها ليس لها حل عسكري.

الموصل).¹¹¹ واختارت المجموعات الأصغر طرقاتاً مختلفة. كتائب ثورة العشرين وجامع عقدة اتفاقات مع الولايات المتحدة، في حين أن عصابات العراق الجهادية وجيش الفاتحين لم تفعل ذلك وشجبت كافة أشكال التعاون.¹¹² في حين لا تتوافر بيانات دقيقة، يعتقد أن ثلثي حركة المسلحين، كما كانت في أوجها، أصبحت غير نشطة حالياً.

فيما يتعلق بالعشائر، أظهرت الولايات المتحدة قدراً من البراعة والدراية فيما يتعلق بالمسلحين أكثر من أي وقت مضى خلال السنوات الخمس من عمر الحرب. حولت الولايات المتحدة تركيزها من محاربة العدو إلى حماية السكان المدنيين؛ وعلى نحو خاص أوقفت العمليات الكاسحة العمياء التي عرضت المدنيين للخطر، وكسبت عدوتهم ولم تحدث سوى أثر محدود للغاية على المسلحين.¹¹³ الأعداد الإضافية من الجنود الذين وضعتهم في قواعد أصغر مكنتها من الشروع في الاهتمام بالديناميات المحلية وتوظيفها لخدمتها. حتى قادة الجماعات المسلحة الذين كانوا لا زالوا نشطين يعترفون بأن الولايات المتحدة حققت تقدماً كبيراً، معترفين ضمناً بأنهم يواجهون أول تحدٍ جدي. وصف أحدهم مسار الأحداث في حي من أحياء بغداد في عام 2007 بما يلي:

كانت العامرية تحت سيطرة عدة مجموعات مسلحة، وخصوصاً القاعدة والجيش الإسلامي. حتى نيسان/أبريل، بالكاد كان بوسع الولايات المتحدة دخول الحي، وإذا فعلت، كانت تجبر على الخروج بسرعة تحت النيران الكثيفة. لكن كان هناك صراع بين القاعدة والجيش الإسلامي. لاحظته الأميركيون، وراقبوا ثم بدؤوا بمساندة طرف ضد الطرف الآخر. وفعلوا ذلك ببراعة، وركزوا هجماتهم على القاعدة بحيث بدأ الجيش الإسلامي يشعر أن الولايات المتحدة هي حليفة بحكم الأمر الواقع. الآن؟ أصبح أبو العبد، القائد المحلي للجيش الإسلامي هو السيد في المنطقة.

لا يمكن لأي مجموعة أخرى الاستمرار في المقاومة. لماذا؟ أولاً، لأن كافة المقاتلين يعرفون بعضهم، ولذلك يستطيع أبو العبد أن يعرف من أين تأتي الهجمات ويسلم مثيري المشاكل للأميركيين. ثانياً، إنهم لا يريدون المزيد من الصراع الداخلي الذي سيؤدي فقط إلى تقوية المحتل. ثالثاً، أدمج أبو العبد العديد من أعضاء المجموعات الأخرى في مجموعته. عندما انتصر في المعركة ضد القاعدة، برز كمحرر، وتمتع بدعم شعبي ودعا المتطوعين إلى العمل معه. كان بحاجة إلى بضع مئات؛ أنه الألاف، العديد منهم من مجموعات منافسة. تعلمت الولايات

114 مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية بارزة في المعارضة المسلحة، تشرين الثاني/نوفمبر 2007. "مثال آخر هو حي الجهاد. طلب الجيش الإسلامي من الولايات المتحدة أن تبني جداراً لحماية المدنيين من الميليشيات الشيعية التي تعمل في حي البياع المجاور وتشجع المهجرين واللاجئين على العودة. وفي نفس المحاولة، سهل الجيش الإسلامي عودة العائلات الشيعية مبرزاً بذلك شخصيته الوطنية لا الطائفية. هذه هي حساباتهم السياسية. أحد الصحفيين الأميركيين قدم رؤية أكثر تفصيلاً: "لقد غطيت أبو العبد منذ مطلع عام 2007 عندما قدم أربعين رجلاً ليعملوا مع الأميركيين. ولست متأكداً من أنه رفع العدد إلى الألاف. يبدو أن هناك الكثير من النزاعات الداخلية بين "أبناء العراق" في العامرية. لست متأكداً من أن الولايات المتحدة حاولت نشر هذا النموذج في أماكن أخرى لأنهم يعتبرون العامرية حالة فريدة، رغم تأثيرها بصحوات الأنبار، مراسلات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات في نيسان/أبريل 2008.

115 "هربت بعد أن شكل الحزب الإسلامي الذي يحكم بعض مناطقنا المحلية قوة شرطة محلية بالتعاون مع عناصر من حماس العراق، وجامع وآخرين. في البداية طاردوا مقاتلي القاعدة ومخبريها، لكن بعد أن هزمت القاعدة استداروا على مقاتلينا وقادوا الأميركيين إلى مخازن أسلحتنا. قوات الشرطة هذه كانت تقاوم إلى جانبنا ضد الاحتلال، ولذلك فهم يعرفوننا شخصياً، ويعرفون من يتعاون معنا ويدعمنا ويقدمون كل هذه المعلومات للأميركيين. أجبرنا هذا على ترك منازلنا والتخلي عن الجهاد. ليس لدينا القوة التي تمكننا من مجابتهم لأنهم مدعومون من الأميركيين لكن أيضاً لأنهم أقاربنا ولا نريد أن يكون بيننا مزيد من الدماء. نأمل أن يعودوا إلى الطريق القويم، وهو طريق المقاومة ضد الاحتلال إلى أن يخرج. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع عضو في عصابات العراق الجهادية، تموز/يوليو 2007. ارتفع عدد مستودعات الأسلحة التي تجدها القوات الأميركية أو العراقية من 50 في مطلع عام 2007 إلى أكثر من 150 في شباط 2008. قاعدة بيانات MNF-I, SIGACTS III (قوات التحالف فقط) بتاريخ 23 شباط/فبراير 2008.

116 جمعت مجموعة الأزمات عدداً كبيراً من الأدلة من السكان في المناطق التي يشك في أنها معقل للقاعدة والذين يدعون بأن النساء والشيوخ والأطفال قتلوا من قبل القوات التي ترعاها الولايات المتحدة. على النقيض من ذلك، يقال بأن المقاتلين الجهاديين الشباب تمكنوا من الهرب والانتشار في مناطق أخرى. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات في مناطق الفارس، والعرسال، والخالص، حزيران/يونيو 2007.

111 مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية ذات صلات قوية داخل المعارضة المسلحة، نيسان/أبريل 2008.

112 نفس المرجع السابق. لاحظ مراقب مطلع آخر أنه "يبقى هناك فضائل، وخصوصاً السلفية منها، لا زالت ملتزمة بمبدأ الجهاد ضد الولايات المتحدة ولا تقبل التفاوض قبل هزيمتها. وهذه تشمل أنصار السنة، وعصابات العراق الجهادية، وجيش المجاهدين وبالطبع كافة الأطراف التي تدعم الدولة الإسلامية، أي القاعدة في العراق، وجيش الطائفة المنصورة وغيرها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مراقب عراقي ذي صلات قوية بالمسلحين، آذار/مارس 2008.

113 ساندت مجموعة الأزمات مثل هذا التحول في أواخر عام 2004 ومرة أخرى في أواخر 2006. تقرير مجموعة الأزمات رقم 34 "ما الذي تستطيع الولايات المتحدة فعله في العراق؟ 22 كانون الأول/ديسمبر 2004، ورقم 60، "بعد بيكر - هاملتون": ما العمل في العراق، 18 كانون الأول/ديسمبر 2006.

تكتيكات مواجهة المسلحين المطبقة في بعض المناطق يصعب تكرارها في أمكنة أخرى، حيث أن نقل الجنود الأميركيين إلى مناطق جديدة وترك قوات الأمن العراقية وراءهم فيه مخاطرة، لأن هذه القوات تبقى ضعيفة ولا يمكن الاعتماد عليها. المفارقة أن الحشد العسكري الأميركي أظهر في معظم المناطق عدم قدرة القوات العراقية، العاملة بمفردها، على حماية السكان المحليين وكسب ثقتهم. علاوة على ذلك، ومع اقتراب انتهاء مدة الحشد العسكري، هناك مخاطر في أن هشاشة الاتفاقات المحلية مع الولايات المتحدة ستصبح أكثر فأكثر، مما سيزيد في صعوبة إقناع العشائر والمجموعات المسلحة في المحافظات الشمالية على تقليد نظيراتها في الجنوب.

باختصار، ورغم أن المعارضة المسلحة تقلص حجمها إلى درجة يمكن التحكم بها على نحو معقول، فإن ما بقي يشكل مصدراً دائماً للعنف وعدم الاستقرار. كما يبقى من المرجح أن يعود للانتعاش ما لم يتم تحقيق تقدم في العملية السياسية، أو نتيجة عدم الرضا عن الاتفاقات الحالية أو عقبات أخرى، سواء على المستوى المحلي أو على مستوى البلاد.

يعود جزء كبير من انعدام اليقين هذا إلى وجود خلايا مسلحة متفرقة لا مركزية ازدادت أهميتها بعد انقسام وتفتت المجموعات المسلحة الأكبر والنحاق بعضها بصف القوات الأميركية. وهذا يتضمن المقاتلين الذين لا ينتمون إلى أي من المجموعات الرئيسية، ولا يوثقون، أو يصورون، أو يعلنون عن أعمالهم، ويفضلون أن تبقى هوياتهم سراً. خلال البحث الميداني في الموصل، والرمادي، والفلوجة طوال عام 2007، التقت مجموعة الأزمات بعدد كبير من هؤلاء. ليس لديهم رؤية كبرى لمستقبل العراق أو حتى لمستقبلهم.¹²¹ وبدلاً من الاعتماد على الموارد الخارجية، فإنهم يعتمدون على المتطوعين المحليين، والأسلحة التي أخذوها من مستودعات النظام السابق ومعرفتهم الكبيرة بمناطقهم.¹²² في الجزء الأكبر، تتكون أنشطتهم من عمليات متواضعة نسبياً مثل هجمات ليلية بقذائف الهاون ووضع الألغام. رغم محدوديتها من حيث النطاق، إلا أن مثل هذه العمليات تشكل جزءاً لا يستهان به من العنف الموجه ضد الأميركيين.

في حين أن هذه الهجمات تشكل إزعاجاً أكثر منها تهديداً استراتيجياً، فإن مقاتليها – بعضهم محترفون كانوا في أجهزة الجيش والاستخبارات – يقدمون أو يبيعون خبراتهم للمجموعات الأكبر،¹²³ مما يعطيهم دوراً هاماً وإن كان غير مباشر في الأداء

ب. المعارضة المسلحة تلقت ضربة قوية لكنها لم تهزم

رغم الانقسام المتزايد في أوساط المعارضة المسلحة وانضمام عدد من المجموعات الهامة إلى جانب الولايات المتحدة، فإنها أصبحت أضعف لكنها تبقى قوة ذات شأن. طبقاً للإحصاءات الأميركية وأخرها في منتصف آذار/مارس 2008، حاول المسلحون أو نفذوا 500 هجوم في الأسبوع بشكل وسطي، أي 2,000 في الشهر، ضد قوات التحالف أو ضد البنية التحتية العراقية – وهي تقريباً نفس أرقام منتصف عام 2005، لكنها تبلغ فقط ثلث ما تم تنفيذه في أسوأ الفترات في عام 2007.¹¹⁷ وتقدم أرقام أخرى صورة أوضح. بين 13 شباط/فبراير و 4 أيار/مايو 2007، تقدر الولايات المتحدة أن الجماعات المسلحة شنت وسطياً 32 هجوماً يومياً (حوالي 960 هجوماً شهرياً) على كافة الأهداف في الأنبار وصلاح الدين، وهما محافظتان اللتان ليس فيهما عنف طائفي ولا نشاطات للمليشيات الشيعية. بين 1 كانون الأول/ديسمبر 2007 و 22 شباط/فبراير 2008، تراجع الوسطي إلى 11 يوماً، أو 330 شهرياً.¹¹⁸ تشير بيانات المسلحين إلى انخفاض مشابه في عدد الهجمات التي يعلنون مسؤوليتهم عنها.¹¹⁹

في هذه الأثناء، بقي العنف على حاله في نينوى بمرور الوقت بمتوسط يومي هو 15 يوماً، أو 450 في الشهر.¹²⁰ رغم أن عدد الضحايا العراقيين (المدنيين والعسكريين) والأميركيين (على الأقل حتى أواخر آذار/مارس 2007 في الجنوب وفي مدينة الصدر) انخفض بشكل ملحوظ، فإن العنف المستمر في وقت تراجع فيه قدرات القاعدة في العراق بشكل كبير يوحي بأن المعارضة المسلحة لم تنته.

يبدو أن الصراع وصل إلى مأزق جديد. من ناحية، يواجه المسلحون عقبات هائلة يصعب تخطيها في المناطق التي نجحت الولايات المتحدة في نشر تكتيكاتها المضادة للتمرد، ويتمثل أملهم الوحيد في العودة إلى النشاط إذا انهارت انجازات الولايات المتحدة – وخصوصاً ظاهرة "إبناء العراق". وبعبارة أخرى فإن مصيرهم مرتبط بما تقوم به الولايات المتحدة – قدرتها على الضرب - وعلى المحافظة على الصفقات المحلية وتحقيق تقدم سياسي ذي معنى إضافة إلى سرعة ونطاق أي انسحاب.

من ناحية أخرى، يبدو أن الحشد العسكري وصل إلى حده الأقصى. إن أثره ضعيف أو معدوم في نينوى أو في أجزاء من صلاح الدين وكركوك (رغم أن تأسيس صحوة الهوية كان إحدى النتائج الهامة غير المباشرة للحشد). نظراً للافتقار للعدد الكافي من الجنود، فإن

¹²¹ ما هو مستقبل المقاومة؟ بصراحة، ليس لدينا فكرة. إنه أمر معقد على أية حال. العديد من مقاتلينا ليس لديهم رؤية محددة إلا على المدى القصير. لكل شيء وقته. إذا هرب الأميركيون فلا شك في أن الحكومة الحالية ستلحق بهم. المناطق السنية ستبقى في يد المقاومة، لكن بالنسبة لباقي العراق، الأمر غير واضح. من المبكر التفكير في ذلك، لأن الديناميات تتغير من يوم إلى يوم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مقاتل غير مرتبط بأي مجموعة معينة، الموصل، أيار/مايو 2007.

¹²² مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات الدولية مع مقاتلين غير مرتبطين بأي مجموعة معينة، الموصل، الرمادي، والفلوجة، أيار/مايو – كانون الأول/ديسمبر 2007.

¹²³ قال ضابط أمن سابق في عهد صدام، "رغم أنني ظلت دائماً مستقلاً، فإنني كنت أقدم المعلومات لعدد من فصائل المقاومة، نظراً لخبرتي في هذا المجال. كنت أقدم لهم خدمات جيدة، وكانوا جميعاً من الإسلاميين. لكنني لم استطع الانضمام إليهم لأنهم يعتبروني بعثياً وضابطاً أمنياً واتهموني بمحاربة

¹¹⁷ شهادة الجنرال ديفيد بيترايوس أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 8 نيسان/أبريل 2008. تتضمن هذه الأرقام الهجمات التي تم تنفيذها في سائر أنحاء البلاد.

¹¹⁸ قاعدة بيانات SIGACTS III (قوات التحالف فقط) في 23 شباط/فبراير 2008. تعكس البيانات الهجمات المعادية التي استهدفت التحالف، وقوات الأمن العراقية، والمدنيين، والبنية التحتية، والمنظمات الحكومية. ولا تتضمن العبودات التجريبية ولا الألغام التي وجدت ونزعت.

¹¹⁹ مقابلة بالهاتف أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل غربي يراقب كافة البيانات الصادرة عن المسلحين في العراق، نيسان/أبريل 2008.

¹²⁰ قاعدة بيانات SIGACTS III (قوات التحالف فقط) في 23 شباط/فبراير 2008.

المسلحة قال: الحقيقة هي أن داخل المجموعات التي ترتبط قياداتها أو تتحالف مع الولايات المتحدة، اختار العديد من مقاتليها الهدوء والاستقرار الذي يتمتعون به في منازلهم، والتوقع هو أنهم قد يعودون إلى فصائلهم الأصلية إذا غيرت هذه المجموعات من مسارها، وهو أمر مشكوك به إلى حد ما، أو أن يتمردوا عليها، وهو احتمال قائم؛ أو أنهم سينظمون أنفسهم على نحو متزايد في مجموعات مقاومة، وهو الأكثر ترجيحاً. يشكل هؤلاء، بمعنى ما، خلايا نائمة.¹²⁸

ثانياً، يشير إلى أنه بين المسلحين السابقين الذي تمت استمالتهم، لا بد أن تتنامى مشاعر الاستياء. يعترف المسلحون أن التقدم الاقتصادي والأمني تحقق في بعض المناطق، حيث عادت الحياة إلى مجراها بعد هزيمة القاعدة في العراق. لكنهم يصفون ذلك بأنه بشكل عام غير كاف، أو غير موجود، أو أنه يبقى هشاً في مناطق مثل عرب الجبور في بغداد، وأنه يعتمد كلياً على الوجود العسكري الأميركي، والتأثير السياسي، والدعم المادي.¹²⁹ ويجادلون بأن التحسينات التي حصلت لا بد أن تتبخر، لأنها ستكون ضحية لسوء الإدارة العراقية، والفساد والطائفية. أهد زعماء المعارضة المسلحة وصف حالة هشة:

لقد أصبحت الأنبار أكثر المحافظات أمناً بالنسبة للأميركيين، باستثناء المناطق الكردية. عملياً، يمكن اعتبار كل بلدة وقرية معسكراً يسيطر عليه الأميركيون تحيطها الأسلاك الشائكة والسواتر الترابية ويمكن الدخول إليها فقط من خلال نقاط تفتيش مراقبة بدقة. لقد تم فرض الأمن، لكن ليس هناك حرية. ولم تتم معالجة احتياجات الناس الأساسية. حتى وقت قريب كان الناس يعتقدون أن القاعدة هي سبب كل مشاكلهم. لكن القاعدة خرجت الآن، وتوقعاتهم تتوجه إلى الولايات المتحدة. تمت استمالة العديد من الناس إلى صف الأميركيين لكن ليس بدافع المحبة لهم. فعلوا ذلك لاعتبارات عملية، ينبغي أن تقدم الولايات المتحدة المتوقع منها بسرعة وعلى نطاق واسع لكن الثقة مفقودة بين الولايات المتحدة والحكومة العراقية واللاعبين المحليين. ولذلك فإن الوضع الحالي وضع مؤقت.¹³⁰

ردد بعض القادة العسكريين الأميركيين هذا التقييم. قال أحدهم، متحدثاً عن عرب الجبور:

المشكلة الكبرى هي أن الحكومة لا تشارك في الجهود التي نبذلها. لا تريد الحكومة أن تساعدنا، ولذلك فإن كل شيء معطل هنا. المخاطرة هي أنه خلال الشهور الستة أو الإثني عشرة القادمة ليس أن تعود القاعدة إلى الظهور، بل أن تظهر مجموعة

مؤهلون ومستعدون". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، الفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

¹²⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل عراقي قريب من المسلحين، آذار/مارس 2008.

¹²⁹ على حد تعبير أحد القادة العسكريين الأميركيين، "اليوم تتحسن الأعمال ويعود الأطفال إلى مدارسهم. حتى وقت قريب كانت الخدمات المتوفرة ضئيلة إن لم تكن معدومة. لم يكن هناك كهرباء عندما أتينا، أما الآن فهناك كهرباء حوالي عشرين ساعة في اليوم. وفرنا ذلك بالذهاب إلى المجلس البلدي والطلب إليهم أن يصلحوا كل شيء. وجعلناهم يعملوا ويعملوا حتى أصلحوا البنية التحتية للكهرباء، وأعادوا تأثيث المركز الصحي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، حور رجب، آذار/مارس 2008.

¹³⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية قيادية في المعارضة المسلحة، تشرين الثاني/نوفمبر 2007.

الكلية للمسلحين.¹²⁴ وبإمكان هؤلاء أن يلعبوا دور المحفز في إحياء المقاومة ضد الولايات المتحدة.

بعض المسلحين يذهب أبعد من ذلك، ويقدم صورة حماسية لمقاومة مستمرة والاعتراض على أي شكل من أشكال التعاون مع الولايات المتحدة. هناك، ولا شك، قدر كبير من الدعاية الشخصية؛ في الواقع قد يكون هدفهم من ذلك تحسين وضعهم التفاوضي ترقباً لمحادثات يسعون إليها مع الولايات المتحدة. غير أن أفكارهم حول سبب كون الصحوات و "أبناء العراق" ليست أكثر من مجرد مرحلة عابرة في حرب مستمر تستحق التفكير.

أولاً: هم يدعون بأن قادة المسلحين السابقين الذين يعملون مع الولايات المتحدة لم يحضروا معهم كل مقاتليهم. بدلاً من الانضمام إلى ما يسمى "بأبناء العراق" فإن العديد منهم تفرق وانضم إلى المقاتلين غير المنضوين تحت لواء أي مجموعة معينة، حيث ينتظرون تحسن الظروف¹²⁵ أو أعادوا انتشارهم في مناطق لا زال من الممكن القتال فيها.¹²⁶ وطبقاً لهذا التصور فهم يظنون معادين بعمق للاحتلال.¹²⁷ محلل عراقي تربطه صلات وثيقة بالمعارضة

السلفية في الماضي. كما كنت أشك فيهم، لأني كنت أشعر أن هناك أطرافاً خارجية وراء بعض الأشخاص الذين كنت أتعامل معهم". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع ضابط أمن سابق، تموز/يوليو 2007.

¹²⁴ علق أحد القادة السلفيين بأن العديد من القادة العسكريين السابقين لم تكن لديهم المؤهلات اللازمة لتولي المواقع الرئيسية في قيادة المسلحين، ولكنهم كانوا لا غنى عنهم نظراً لخبرتهم: "القادة العسكريون السابقون يفتقرون إلى الرؤية السياسية. كانت تجربتهم في عهد صدام عبارة عن طاعة عمياء وولاء مطلق. لديهم خبرات عسكرية ودراية وشجاعة هائلة، لكنهم ليسوا ثوريين". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم إحدى المجموعات المسلحة، نيسان/أبريل 2007.

¹²⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع أعضاء في المعارضة المسلحة، في الرمادي والفلوجة، كانون الأول/ديسمبر 2007. يبدو أن مجموعات المسلحين تستعيد في الوقت الراهن خيار الانتقام الشامل من كل الذين عقوا صفقات مع الولايات المتحدة. هؤلاء يصنفون "أبناء العراق" في عدة فئات، ويؤكدون أنه رغم أن بعض أفرادها متعاملون حقيقيون مع الولايات المتحدة، فإن آخرين يدفعهم الغضب المشروع من أفعال القاعدة أو الفقر. ولهذا السبب فإنهم يحجمون عن استهدافهم. كما أن هناك اعتبارات أخرى، بما في ذلك معرفة "أبناء العراق" المفصلة للمناطق المحلية، والدعم القوي الذي يلقونه من الولايات المتحدة والخوف من الأكاليف التي ستترتب على حرب أهلية بين السنة. اتصالات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع المستوى في هيئة علماء المسلمين، وهي منظمة دينية سياسية ذات ارتباطات بالمعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008؛ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات وجيش المجاهدين، وأنصار السنة، وجامع، وحماس العراق، والتي تتعاون شرائح منها الآن مع الولايات المتحدة، 6 آذار/مارس 2008.

¹²⁶ قال مسؤول في هيئة علماء المسلمين، "استعملت قوات الاحتلال عدة وسائل لعدم إتاحة أي فرصة أمام المقاومة في مناطق محددة من البلاد. لكنهم كانوا يفاجؤون بظهور الفرص في أمكنة أخرى. في الماضي القريب، عندما هدأت المقاومة في الأنبار، تكثفت في ديالى؛ وعندما هدأت في ديالى، عادت للاشتغال في الموصل و سامراء، وهكذا في سلسلة من المواقع المتغيرة التي لا أرى نهاية لها". اتصالات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008.

¹²⁷ قال جنرال سابق، "المهم هو مطاردة المحتل الأميركي. لقد اتصلوا ببعض الجنرالات السابقين مثلي وعرضوا علينا وظائف في الجيش أو الشرطة. في الواقع، لقد حاولوا إغرائني بمنصب هام. فكرت في الموضوع ورفضت. قررت أنني لن أرضى بذلك ما دمنا تحت الاحتلال. شروطتي التفاوضية بسيطة: أنتم ترحلون ونحن المحترفون نضبط الأمن. نحن

وإذا لم تتحقق توقعاتهم الضخمة إلى حد ما، فإن بعض المسلحين يجادلون بأن "أبناء العراق" في المحصلة سيقنعون تدريجياً بعدم رغبة أو قدرة الولايات المتحدة على تحقيق هذا الهدف. يشير ممثلو المعارضة المسلحة على نحو متكرر إلى أملهم بأن يفبق حلفاؤهم السابقون من "خداع واستغلال الأميركيين لهم ويعودوا من تجربة مريرة ومخيبة للأمال".¹³⁵ وهم يبنون على التاريخ الحديث لدعم حجته، أي ما يرون فيه سلبية القوات الأميركية طوال الحرب الأهلية التي أحقت ببغداد وأمكنة أخرى، عندما كانت فرق الموت الشيعية تمارس نشاطها دون خوف من العقاب.¹³⁶

يقولون إن كل ذلك يعزز اعتقادهم أن التوصل إلى صفقات مع الولايات المتحدة في النهاية غير مجد، حيث أن واشنطن لم تقم فعلياً بأي شيء لتخليص البلاد من النفوذ الإيراني؛ بدلاً من ذلك فقد استعملت حلفاءها السنة الجدد في دحر المقاومة وترسيخ احتلالها.¹³⁷

أحد المسلحين علق قائلاً: "إيران ليست أولويتنا. لقد ازداد النفوذ الإيراني فقط تحت غطاء الاحتلال الأميركي؛ والولايات المتحدة أسهمت في تعزيز هذا النفوذ بوضع ودعم هذه الحكومة الطائفية. ولذلك فإن أولويتنا ستبقى دائماً الاحتلال الأميركي."¹³⁸

إن امتناع الحكومة العراقية عن دمج أعداد كبيرة من "أبناء العراق" في الأجهزة الأمنية يشكل دليلاً إضافياً.¹³⁹ بحلول نيسان/أبريل

تمرد سنية أخرى بسبب الإحباط المتولد عن عدم وجود دعم حكومي. الحكومة لا تكثر لعرب الجبور لأنها المنطقة التي يتحدر منها بعض أنصار صدام.¹³¹

ويشير متشككون آخرون إلى عدم الانتظام في دفع الرواتب والافتقار إلى البنية التحتية الحيوية كالمستشفيات كأسباب فشل الجهود الأميركية،¹³² وهذا أمر مشكوك فيه على المدى القصير. إذاً لابد من توفر سبب أهم يقنع عدداً كبيراً من المسلحين السابقين للنكوص عن تحالفهم الجديد. بما أنهم ربطوا مصيرهم بالولايات المتحدة، ونظراً لأن عودة القاعدة تبقى احتمالاً قائماً، فإن "أبناء العراق" سيفكرون ملياً قبل الانقلاب على راعيهم الجديد. حتى لو انشق عدد من الأعضاء، فإن القيادة تلطخت سمعتها لدى المعارضة المسلحة من خلال تعاملها مع الاحتلال، ولذلك فمن الصعب أن تعود عن هذا التحالف. كما أنه ليس هناك من دوافع قوية لاستئناف الأنشطة المعادية للولايات المتحدة، التي أظهرت محدوديتها. لقد عبر "أبناء العراق، عتبة معينة، وسيحتاج الأمر إلى أكثر من الإحباط كي يعبروها في الاتجاه المعاكس. بدلاً من ذلك هناك خطر حقيقي في أن يظهروا مجرد عملاء للولايات المتحدة، وبذلك يخسرون شرعيتهم في عيون قواعدهم. ويمكن الشعور بالقلق الذي ينتابهم من احتمال الخروج بهذه الحصيلة. كما قال أحد قادة "أبناء العراق":

نحن بانتظار تغيير سياسي كبير. نحاول إرسال رسالة ذات معنى إلى الناس ... لإقناعهم – بالتخلي عن السلاح ... هناك مجموعة واحدة ظلت خارج العملية السياسية. دعونا نعترف الآن أنه كان هناك خطأ – أن العملية الانتخابية عام 2005 سيطر عليها الشيعة وأن الأجهزة الأمنية أصبحت تحت سيطرة الأحزاب والمليشيات الشيعية. هناك أكثر من طريقة لتغيير هذا الواقع. نتيجة لذلك قمنا بإنشاء بنية سياسية لتمثيلنا، ونأمل أن يكون هناك تعاون حقيقي من الجانب الأميركي. لا زالت التهديدات من القاعدة، ومن المليشيات الشيعية وإيران موجودة. رسالتنا هي أن علينا أن نبدأ عهداً جديداً. يسأل متطوعونا ما المكافأة التي نحصل عليها مقابل تعاوننا – هل هي مجرد بضعة دولارات؟ لا يمكن لهذا أن يشكل مكافأة. إذا فقدنا الأمل فإننا قريباً سنواجه الخلايا النائمة للقاعدة.¹³³

بالفعل، فإن العديدين ممن انضموا إلى "أبناء العراق" فعلوا ذلك على الافتراض المباشر ولو المبسط بأن تحالفهم مع الولايات المتحدة سيحد من النفوذ الإيراني والقوة الشيعية. المفارقة أن هذا يربط الولايات المتحدة بالعناصر السنية الطائفية المعادية للشيعة.¹³⁴

¹³¹ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع قائد عسكري أميركي، عرب الجبور، آذار/مارس 2008.

¹³² "يمكن للناس الآن أن يتابعوا أعمالهم. لكن هناك جو من الخوف، إذ أن الناس غير راضين تماماً عن الوضع الراهن، الذي يعتقد أنه غير مستدام. الخدمات الأساسية سيئة للغاية وقد أصبحت المجال الرئيسي الذي تركز عليه الانتقادات الموجهة للحكومة. المستشفيات والخدمات الصحية محدودة للغاية، أسوأ بكثير مما كانت عليه في عهد صدام وخلال مرحلة الحصار الاقتصادي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات بالهاتف مع رجل أعمال من بعقوبة، كانون الأول/ديسمبر 2007.

¹³³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد قادة "أبناء العراق"، الغزالية، آذار/مارس 2008.

¹³⁴ لقد تهمت كتائب ثورة العشرين، مثلاً، بالتطهير الطائفي في ديالى، جنباً إلى جنب مع القاعدة (رغم أن ذلك لم يكن بالتنسيق معها). وفي محاولة

لتفسير قرارها بالوقوف إلى جانب الولايات المتحدة في معقلها التقليدي في أبو غريب، غرب بغداد، أبرزت المجموعة الحاجة إلى مقاومة ما يسمونه "الاستعمار" الشيعي. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع مسلحي من ديالى وأبو غريب، آب/أغسطس 2007.

¹³⁵ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين للمعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008. وصف مستشار عسكري أميركي المشاعر التي يمكن أن تسوء إذا لم يتم دمج "أبناء العراق" في أجهزة الأمن العراقية: "يمكن "أبناء العراق" من تغيير اتجاه الأحداث تماماً العام الماضي. والآن يقولون "نحن قمنا بذلك من أجلكم – وقمنا بذلك من أجل أنفسنا أيضاً – وما الذي حصلنا عليه مقابل ذلك؟ الجواب هو لا شيء". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بغداد، آذار/مارس 2008.

¹³⁶ يروي العراقيون قصصاً لا حصر لها عن العنف الموجه ضد السنة الذي تمارسه قوات الأمن رغم الوجود العسكري الأميركي في الجوار؛ ويدعون أن القوات الأميركية كانت تشارك أيضاً في الضغط على الأحياء السنية التي كانت تقاوم هذه القوات. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع لاجئين سنة من بغداد، دمشق، 2007-2008.

¹³⁷ "على النقيض مما يعد به الأميركيون، فإنهم يركزون على القاعدة والمليشيات التي تدعمها إيران. إنهم يستهدفون كافة فصائل المقاومة. في الواقع فإن جهودهم ضد تلك المليشيات تتلاشى عند مقارنتها بتلك التي يبذلونها ضد المقاومة". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية (الذي يتعاون عناصر منه مع الولايات المتحدة)، آذار/مارس 2008.

¹³⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع أحد أفراد المسلحين، آذار/مارس 2008. ورد متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية هذه النظرة: "من الواضح أن المجلس ينظر إلى المحتل الأميركي بوصفه الأولوية الكبرى. الاحتلال هو السبب الرئيسي لوجود العملاء الإيرانيين، وإذا طرد الاحتلال، فإنهم سيطردون أيضاً. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008. وقد عبر عدد من قادة المعارضة المسلحة عن آراء مماثلة لمجموعة الأزمات، مقابلات، آذار/مارس 2008.

¹³⁹ علق أحد أفراد المسلحين قائلاً، "حتى اليوم نعتقد أن الولايات المتحدة تعمل لتعزيز الفوضى. وإلا فكيف يمكن للمرء أن يفسر عدم قدرتها على بناء

الأجل يمكن أن تتحقق على حساب الأهداف بعيدة الأجل؛ كما أن مزيداً من التشرذم يمكن أن يجعل من الاستقرار المستدام هدفاً بعيد المنال. متحدث باسم إحدى المجموعات المسلحة توسع في شرح هذه النقطة:

ينقسم الشيعة إلى أحزاب مختلفة، وهذه بدورها منقسمة إلى عدة فروع. وبهذه الطريقة، يعتقد الأميركيون أنهم يستطيعون السيطرة عليهم. وتحاول الولايات المتحدة السيطرة على السنة بطريقة مشابهة من خلال تكتيكات فرق تسد. غير أن كل هذه الصفقات الصغيرة مع العشائر والمجموعات المسلحة لا يمكن أن تعتبر تقدماً - ناهيك عن تحقيق اتفاق حقيقي - حول القضايا المركزية. إنها تمثل سلسلة من الانتصارات التكتيكية المؤقتة التي ستتلاشى أمام مزيد من العنف عندما تتعمق التوترات بين كل هذه العناصر المدعومة من قبل الولايات المتحدة. يمكن للانتخابات القادمة، على سبيل المثال، أن تكون سبباً للصراعات، عندما يتصارع الجميع على الميزان الجديد للقوة. نتوقع أن يعود الوضع الأمني للتدهور، مما سيمكن المقاومة من استئناف نشاطها.¹⁴⁴

على وجه الإجمال فإن تحويل تجربة "أبناء العراق" إلى إنجاز مستدام يطرح تحديات أعمق من إدماج بعضهم في الأجهزة الأمنية وتوفير الوظائف لهم - وهو بحد ذاته يشكل مهمة صعبة لأسباب سياسية واقتصادية. ما تقتفر إليه الولايات المتحدة حتى الآن هو إستراتيجية تهدف إلى التعامل مع السكان السنة بوجه عام، وما تبقى من المسلحين بشكل خاص، وهو أمر لا زال يشكل بديلاً يحظى بالمصداقية بالتعاون مع الولايات المتحدة، إذا فشل هذا التعاون في تحقيق النتائج المرجوة.

ج. هل يمكن للولايات المتحدة ومجموعات المعارضة المسلحة أن تتفاوض؟

تعكس الجدالات المقدمة أعلاه منظوراً مصلحياً لأفضل سيناريو محتمل من وجهة نظر المسلحين، الذين يهملون على وجه الخصوص احتمال أن تعزز الولايات المتحدة من مكاسبها التكتيكية من خلال توفير الوظائف، وإعادة الإعمار، وإدماج أعداد كبيرة منهم في أجهزة الأمن ومن خلال خطوات تتخذها الحكومة العراقية نحو المصالحة السياسية.

رغم ذلك، فإنه سيكون من الحماسة أن تستبدل الولايات المتحدة تمنيات المسلحين بتمنياتها - أي الاعتقاد بأن المعارضة المسلحة الفعالة ستتلاشى وتختفي حالما تُدفع الرواتب في مواعيدها، ويتم تحقيق بعض المعايير السياسية أو إطلاق حملات عسكرية واسعة في المعازل المتبقية للمسلحين. إن الديناميات التي يشير إليها المسلحون - الاستياء الدائم بين السنة، وحقيقة أن العديد من المجموعات اختفت من الواجهة فقط، واحتمال تلاشي أو هام "أبناء العراق"، وخيبة أملهم من عدم قدرة الولايات المتحدة على مواجهة إيران وحلفائها المفترضين، وفشل الحكومة العراقية في إدماجهم - كل ذلك يمكن أن تنشأ عنه مشاكل طويلة الأجل. بصرف النظر عن الخطوات المذكورة أعلاه، فإن تقليص هذه المخاطرة سيطلب انخراط الولايات المتحدة الجاد مع مجموعة لا زالت نشطة. وقد تم الشروع في بعض الاتصالات. وقد كلف جنرال بريطاني بالاتصال

2008، كان 21,000 من بين أكثر من 91,000 قد أدمجوا في الجيش والشرطة أو قدمت لهم أعمال يدوية.¹⁴⁰ في النهاية، يقول العديد من المسلحين الذين لا زالوا نشطين بأن "أبناء العراق" سيتعرضون لمزيد من الضغوط لإعادة النظر بتحالفاتهم الجديدة مع الولايات المتحدة،¹⁴¹ وأن تصميم أولئك الذين ظلوا مع المقاومة سيزداد.¹⁴² يقدم المسلحون سبباً مكملاً ثالثاً للتشكك فيما إذا كانت السياسة الحالية يمكن أن تؤدي إلى هدوء دائم، وهو يتعلق بالانقسام السني. لقد أصبح إحداث انقسامات في المعارضة المسلحة ودعم فصائل ضد فصائل أخرى إحدى دعوات السياسة الأميركية ويعود لها الفضل جزئياً في النجاحات التي تحققت أخيراً. على حد تعبير أحد المحللين العرب، "إن الهدف المباشر للولايات المتحدة هو تشجيع الانقسامات بين السنة والشيعة؛ كلما ازداد تشرذمهم، كلما طلبوا المساعدة الخارجية ضد المجموعات التي تنافسهم، ولكما ضعفت وحدتهم في مواجهة التحالف".¹⁴³ غير أن المصلحة قصيرة

أجهزة أمن حيادية ووطنية؟ عندما ترفض الحكومة الحالية إدماج الصحوات ("أبناء العراق" هو بشكل أساسي تعبير أميركي، في حين أن العراقيين يستعملون أحياناً الصحوات - وهو تعبير كان يقتصر في البداية على الصحوات العشائرية - لوصف كافة المتطوعين العاملين مع الولايات المتحدة) في أجهزة الأمن، ولماذا تسايها الولايات المتحدة في ذلك؟ لا نستطيع فهم ذلك وهو يقتنع بأن الأميركيين ليسوا جادين فيما يتعلق بمواجهة "الميليشيات الشيعية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008.¹⁴⁰ شهادة الجنرال بترابوس أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس الشيوخ، 8 نيسان/أبريل 2008. أحد القادة العسكريين الأميركيين في حي الرشيد المختلط في بغداد وصف العقبات التي واجهها على أنها تتمثل في القدرات غير الكافية وانحياز الحكومة الطائفي: "لا تقوم الحكومة بما يكفي. قد يكون لديهم أفضل النوايا، لكنهم لا يتمتعون بما يكفي من القدرة لفعل ما ينبغي فعله، ثم أنهم يخشون أن يفقدوا السيطرة - وأن العملية بمجملها ستخرج عن السيطرة. ثم إنني لا أرى أن "أبناء العراق" السنة يتم إدماجهم في أجهزة الأمن بالسرعة التي يتم إدماج نظرائهم الشيعة. لازلت أرى معدلاً مرتفعاً من الموافقات على اندماج المتقدمين الشيعة في الجانب الغربي من الرشيد، في حين أن الأمر لا يتعدى الإجراءات الرمزية بالنسبة للسنة في الشرق. كيف يمكن للمرء أن يكافح ذلك؟ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، بغداد، آذار/مارس 2008.

¹⁴¹ "تمت إقامة التحالف بين بعض الفصائل وقوات الاحتلال في وقت تبني فيه المحتلون وجهاً جديداً؛ وقد ساعدهم في ذلك العديد من السياسيين السنة الذين اشتروا في العملية السياسية. خلال الهجوم الطائفي الذي شنه جيش المهدي وفيلق بدر، (في أعقاب تججير مسجد سامراء عام 2006 وطوال النصف الأول من عام 2007) - وهي لعبة فذرة أصبح دور إيران فيها واضحاً - ازداد غضب الناس. حاول المحتلون استغلال ذلك لمصلحتهم، واقنعوا هذه الفصائل بالتوقف عن قتل الأميركيين والتركيز على إيران وحلفائها، وهم الأكثر خطراً وسيطرون في البلاد بعد رحيل المحتلين. نعتقد أن هذه الفصائل ارتكبت خطأ قاتلاً؛ فمن ناحية ضحوا بالدعم الشعبي الذي كان يتمتعون به، ومن ناحية أخرى تم استغلالهم كالمصحات، لقد تم استعمالهم لتحقيق أهداف قصيرة الأجل، وسيتم التخلي عنهم عند أول فرصة. إنهم يخاطرون بأن يتعرضوا للعزلة وللنفذ الشامل". مراسلات الكترونية أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع المستوى من هيئة علماء المسلمين، آذار/مارس 2008.

¹⁴² "كل من يعتقد أنه يمكن إغراء المقاومة بعود التمثيل السياسي، وعودة المهجرين أو تحسين الخدمات خاطئ. تلك الفصائل التي استسلمت لمثل هذه الأوامر خاب أملها وأحبطها المحتل واكتشفت أن الأميركيين خدعوا. أما المجموعات الباقية، وخصوصاً أكثرها أهمية ونشاطاً، فإنها لن ترضى بأقل من الانسحاب الأميركي الكامل. لقد أصبحت قناعاتهم أقوى بفضل تجربتهم المريرة". مراسلات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات مع هيئة علماء المسلمين، آذار/مارس 2008.

¹⁴³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل عربي، تشرين الأول/أكتوبر 2007.

¹⁴⁴ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم جبهة مسلحة، آذار/مارس 2008.

يشكون من قلة المتطوعين أو الأسلحة،¹⁴⁹ ويجادلون بأن غياب بديل يحظى بالمصداقية للمقاومة سيبقي العديد من المقاتلين في حالة نشاط في المستقبل المنظور. غير أن علامات التعب والإرهاق بادية للعيان. سعيًا إلى تصوير أوضاع المعارضة المسلحة على نحو إيجابي، قال متحدث باسم إحدى المجموعات، "لقد وصلت المقاومة إلى مرحلة جديدة، لكن لا يمكن مساواة ذلك بالاستسلام. يمكن أن نسميها وفتة. لقد تحمل شعبنا الكثير من العناء والمشقة وبكثير من التصميم: الحرب العراقية الإيرانية، وحرب 1991، والحصار، والعدوان الأميركي. إننا بحاجة إلى فترة راحة بين الحين والآخر."¹⁵⁰

تعاني مجموعات المسلحين من إرهاق الحرب، وتعرف أنها أصبحت أضعف وتسعى لتحقيق بعض المكاسب قبل انسحاب الولايات المتحدة. إنهم يشكون من الانقار إلى العمق الاستراتيجي الذي يمكنهم من هزيمة عدوهم. وبانتشاق القاعدة في العراق، تراجعت الموارد المالية. وتمتنع الدول العربية عن تمويل المعارضة المسلحة أو حتى الاعتراف بشرعيته.¹⁵¹

يعيب المسلحون أحياناً على القادة البعثيين في المنفى – الذين يهتمون في كثير من الأحيان من قبل الولايات المتحدة والحكومة العراقية بتمويل المقاتلين العراقيين – لعدم القيام بمسؤولياتهم.¹⁵²

ثمة عوامل أخرى تجعل من الوقت الراهن وقتاً مناسباً للحوار؛ وهي تتضمن انتخابات مجالس الأقاليم القادمة، التي اعترف عدد من مجموعات المسلحين بأهميتها. قال أحد متحدثيها الرسميين، "الانتخابات المحلية لا ترتبط بالحكومة المركزية بقدر علاقتها بالخدمات المحلية. وستسمح المقاومة بإجراء الانتخابات طبقاً لرغبة الناس، لأن أحد أهدافنا يتمثل في خدمة الناس والآن المجالس المحلية ليست جزءاً من العملية السياسية".¹⁵³ يمكن لهذه الانتخابات المستقبلية أن تكون مدخلاً إلى نقاشات موسعة بين الولايات المتحدة والمسلحين؛ وفي نفس الوقت يمكن أن تعيد شيئاً من التوازن إلى العملية السياسية التي اختلت بسبب الانتخابات المحلية السابقة (التي

بعناصر داخل المعارضة المسلحة،¹⁴⁵ وتم إطلاق مبادرات، مثل الإفراج عن بعض الأسرى في سياق صفقات محلية.¹⁴⁶ رغم ذلك، ورغم اعتراف المسلحين بأن خطوط الاتصال مع الولايات المتحدة موجودة منذ بعض الوقت،¹⁴⁷ فإنهم يصرون على أن المحادثات لم تصل إلى درجة المفاوضات الحقيقية. بدلاً من ذلك، فإنهم يرون فيها محاولات أقرب إلى تمارين جمع المعلومات الاستخباراتية أو محاولة أخرى لتكرار تكتيكات فرق تسد، حيث يتمثل الهدف في استمالة المجموعات بدلاً من التوصل إلى تسوية حقيقية. إحدى الشخصيات التي تحظى بالاحترام في المعارضة المسلحة قالت:

لم تجر أية مفاوضات حقيقية بين لاعبين رئيسيين في المقاومة وبين الولايات المتحدة والحكومة العراقية – كل ما هنالك هو فتح خطوط اتصال. لقد اكتسبت المفاوضات مع المحتل سمعة سيئة لدى معظم المجموعات، لأن الولايات المتحدة إما تريد الاستسلام على شروطها أو أنها تتحدث إلينا لتجمع المعلومات وتحديث انقسامات.¹⁴⁸

ما من شك في أن معظم المجموعات المسلحة تسعى للتفاوض. يدعي ممثلوها أن بإمكانهم مواصلة القتال إلى ما لانهاية، وقلما

¹⁴⁵ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول بريطاني، لندن، حزيران/يونيو 2007.

¹⁴⁶ من أجل استمالة المسلحين، قررت الولايات المتحدة الإفراج عن بعض المعتقلين وبشكل انتقائي استناداً إلى تقييم حول ما إذا كان يمكن أو لا يمكن الوصول إلى تسوية معهم. محاضرة ألقاها مستشار رفيع المستوى أمام القيادة العسكرية الأميركية حضرتها مجموعة الأزمات، واشنطن دي سي، شباط/فبراير 2008.

¹⁴⁷ حتى في مطلع عام 2007، قال متحدث باسم إحدى المجموعات المسلحة، "لقد أجريت نقاشات، وبذلت جهود تركية، وسعودية، وأردنية لتعميق هذه النقاشات. لكننا لم نر حتى الآن إلى أين ستقضي هذه النقاشات".

مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، نيسان/أبريل 2007. أضاف صحفي عراقي تربطه صلات بالمعارضة المسلحة، "أعلن طالباني خلال المؤتمر الذي استضافته الجامعة العربية في تشرين الثاني/نوفمبر 2005 بأن ثمة محادثات مع عناصر من المقاومة. بعد بضعة أشهر، اعترف الأميركيون للمرة الأولى بأن خطوط الاتصالات كانت قد فتحت وأنها ستعزز قريباً. في ذلك الحين أرادت المقاومة أن تجس نبض الأميركيين من خلال أطراف ثالثة مثل رجال الأعمال والسياسيين". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات تموز/يوليو 2007.

¹⁴⁸ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية رفيعة المستوى داخل المعارضة المسلحة، تموز/يوليو 2007. كانت الولايات المتحدة مستعدة وتحاول التحدث إلى المسلحين لبعض الوقت، غير أنه يبدو أن النقاشات تركزت على قضايا تعتبر هامشية من قبل المعارضة الأكثر تصميماً والمهتمين بإجراء مراجعة شاملة وجوهريّة للنظام السياسي. "نحن نتحدث إلى بعثيين سابقين داخل وخارج العراق، وقد شجعناهم على التحدث إلى لجنة المصالحة تدور المحادثات الحالية حول العفو العام، والرواتب التقاعدية، والممتلكات (التي تمت مصادرتها أو استملاكها من قبل الآخرين). بعض محادثينا المنفيين يريدون التفاوض بشأن عودتهم، لأنهم يجدون صعوبة في البقاء في الأردن أو في بلدان أخرى، إما بسبب مشاكل مالية أو بسبب المشاعر المتنامية ضد العراقيين. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول يشارك في عملية المصالحة، بغداد، آذار/مارس 2008. قادة وممثلو ما تبقى من المعارضة المسلحة أكدوا بأنه لم تجر أية مفاوضات استناداً إلى مطلبهم الرئيسي وهو الانسحاب الكامل للولايات المتحدة. مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008.

¹⁴⁹ "الأسلحة المتوفرة تكفي كي نستمر في القتال لعشرين عاماً قادمًا، حيث تخلى الجيش السابق عن مستودعاتها بأكملها". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية، آذار/مارس 2008.

¹⁵⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم جبهة مسلحة، آذار/مارس 2008.

¹⁵¹ قال متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية، "ندعو الدول العربية والإسلامية إلى دعم المقاومة لأنها الممثل الشرعي الوحيد للشعب العراقي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008.

¹⁵² "كبعثيين اتصلنا بقاتلنا في سورية ووعدوا بالعديد من الأشياء، وأعطونا رواتب شهرية بمقدار 300 دولار وتعدوا بالمساعدة العملية أو بالأموال لبناء قدراتنا. كان ذلك في أواخر عام 2005. بقيت الأمور على حالها لمدة ستة أشهر، وكان كل ما رأيناه هو رواتبنا. عندها كان علي أن أهرب، إذ لم أكن أملك ما أدفع به عن نفسي من المحتل ومن عملاء إيران". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع لواء سابق في الجيش العراقي وعضو شعبة في حزب البعث، آب/أغسطس 2007. أقر قائد بعثي رفيع المستوى: "يعاني البعث من عدم قدرته على إقناع أحد بأنه يلعب دوراً في المقاومة. نريد أن نشكل مقاومة بعثية، حتى لو جاء ذلك متأخراً أكثر من أربع سنوات. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع المستوى في حزب البعث (جناح محمد بونس)، حزيران/يونيو 2007.

¹⁵³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية، آذار/مارس 2008.

مجموعات أميركية واسعة في العراق¹⁶⁰ تعطي الانطباع المعاكس تماماً، مما يدفع العديد من المتمردين للتشكيك بما يعتبره المسؤولون الأميركيون بديهياً: بأنهم يعتززون ويريدون المغادرة. لهذا الغموض تبعات عملية حقيقية جداً، يساعد في إبقاء القضية الوطنية للمعارضة المسلحة حية.¹⁶¹

رغم أن المسلحون يصرون على أنهم لن يرضوا بأقل من الانسحاب الكامل،¹⁶² فإنهم يقبلون بأن ذلك سيكون بالضرورة عملية طويلة ومعقدة وسيتوجب التفاوض بشأن تفاصيلها وأشكالها.¹⁶³ إن إيجاد طريقة لإظهار أن الوجود العسكري ليس مفتوحاً إلى ما لانهاية ودون الالتزام بجدول زمني - سواء خلال بيانات أو بالشروع في محادثات أولية مع مجموعات المسلحين - يمكن أن يساعد في ذلك الصدد؛ وقد يكون من الضروري إشراك طرف ثالث - ربما على شكل مبعوث للأمم المتحدة - في أية نقاشات بسبب عمق انعدام الثقة.¹⁶⁴

□ المجموعات المسلحة ترفض أيضاً الحكومة الحالية والنظام السياسي بمجمله. وينظرون إلى أي تفاعل مع الحكومة على أنه لا يمكن حتى التفكير فيه؛¹⁶⁵ ويصفون السنة الذين يشاركون في ذلك النظام بأنهم متعاملين انتهازيين ولا يمثلون السنة،¹⁶⁶ ويعتبرون الدستور مشوهاً للغاية بحيث يمثل تحدياً أكبر من الاحتلال.¹⁶⁷ قال أحد مسؤولي هيئة علماء المسلمين، معبراً عن وجهة نظر عامة تتبناها مجموعة المسلحين:

160 سفارة الولايات المتحدة في بغداد هي أكبر تمثيل دبلوماسي في العالم. "مطار بغداد الدولي" أصبح أكبر قاعدة جوية أميركية بحكم الأمر الواقع، يدخل المواطنون الأميركيون إلى العراق من خلاله دون تأشيرة.

161 من المستحيل توحيد كافة الفصائل في جبهة واحدة لأن المجموعات المختلفة لها أجندات مختلفة. لكنها جميعاً تتفق على الحاجة إلى طرد المحتل، وهناك تنسيق لتحقيق هذا الهدف؛ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في المجلس السياسي للمقاومة العراقية، آذار/مارس 2008.

162 "لا أعتقد أن المقاومة سترضى بأقل من الانسحاب الأميركي الكامل، وبالنسبة لي فإن هذا يفسر عدم استسلامها رغم المحاولات لتدميرها أو تهديتها؛ اتصالات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول في هيئة علماء المسلمين، آذار/مارس 2008.

163 مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين للمسلحين، أيلول/سبتمبر 2007 و آذار/مارس 2008.

164 "نحن لا نثق إطلاقاً بالأميركيين أو بأية مفاوضات معهم إلا تحت الإشراف الدولي". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدت باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية، آذار/مارس 2008.

165 "لا أحد يرى أي فائدة في التفاوض مع الحكومة، لأنها أداة، وليس صاحبة قرار. لا نعرف أي فصيل هام دخل في أية مفاوضات معها". اتصالات أجرتها مجموعة الأزمات بالبريد الإلكتروني مع مسؤول رفيع المستوى في هيئة علماء المسلمين، آذار/مارس 2008.

166 السياسيون السنة أصحاب سجل مرعب، بالنظر إلى وعودهم الكثيرة وغياب أية نتائج وأداؤهم مرعب أيضاً. أشك بأن أولئك الذين انتخبوهم يعتبرونهم ممثلهم". نفس المرجع السابق.

167 "المشكلة ليست في الاحتلال. القوات الأجنبية ستطرد يوماً ما. أما الدستور فهو موجود ليبقى". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدت باسم المعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008.

قاطعها العديد من المجموعات)؛ ويمكن أن تكون خطوة هامة نحو إظهار إمكانية إصلاح النظام السياسي، وتوليد تمثيل شرعي وتقديم حلول سلمية.¹⁵⁴

على نحو أكثر عمومية، وفي نقاشات مع مجموعة الأزمات، طرح قادة المعارضة المسلحة عدداً من الأفكار، وأظهروا قدرأ من البراغمية. على سبيل المثال، قالت شخصية رفيعة المستوى داخل المعارضة:

عملياً، لدينا العديد من الأفكار، مثل إعادة تشكيل الأجهزة الأمنية، استناداً إلى عدد سنوات الخدمة لضمان أن تكون الوحدات مختلطة فعلاً، وإعادة العمل بالتدريب العسكري الإجمالي كطريقة لتعزيز الوحدة الوطنية وإعادة توظيف القادة الوطنيين الذين يحفل بهم العراق.¹⁵⁵

وأضاف آخر:

نحن لا نسعى إلى النصر المطلق على الولايات المتحدة، بل نتطلع إلى توازن أفضل يضمن استقلال البلاد ويحمي مصالحنا المشتركة. إذا أرادت الولايات المتحدة أن تحتفظ بماء وجهها، عليها أن تبادر إلى بناء - أو المساعدة في بناء - حكومة وطنية تعكس التمثيل الحقيقي والمتوازن وتضم وطنيين حقيقيين. لن يسهم هذا في تهدئة الأمور على الأرض وحسب، بل سيسمح بإجراء مفاوضات شرعية حول كافة القضايا.¹⁵⁶

بالنظر إلى عمق انعدام الثقة، يمكن للمفاوضات أن تبدأ بسلسلة من الاجتماعات شخصاً - لشخص بين ممثل للولايات المتحدة وممثلين عن المجموعات التي لا تزال نشطة، واحتمال التوسط من قبل بلدان الجوار.¹⁵⁷ يمكن أن يشكل هذا مقدمة لاجتماع موسع للاعبين العراقيين دعت إليه مجموعة الأزمات في تقرير سابق.¹⁵⁸

أخذين كل ما سبق بعين الاعتبار، ورغم أن مجرد الشروع في المفاوضات الجدية يمكن أن يساعد في تعزيز مزيد من الواقعية والفهم لدى جميع الأطراف، يبقى هناك عقبات هامة:

□ يصر المسلحون على وصف الوجود الأميركي بالاحتلال واعتباره مصدراً لعدم الاستقرار ويتوقعون ضمانات بإنهائه.¹⁵⁹ إن غياب مثل هذه الضمانات إضافة إلى بناء

154 أنظر تقرير مجموعة الأزمات رقم 75: "العراق بعد الحشد العسكري 2: الحاجة إلى إستراتيجية سياسية جديدة"، 30 نيسان/أبريل 2008.

155 مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع شخصية رفيعة المستوى داخل المعارضة المسلحة 1 تموز/يوليو 2007.

156 مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع زعيم عشائري ومسلح، آذار/مارس 2008.

157 هناك بعض الأدلة على أن الولايات المتحدة كانت مهتمة بمثل هذه الصيغة لبعض الوقت.

158 أنظر تقرير مجموعة الأزمات، "بعد بيكر - هاملتون"، المرجع السابق؛ وأيضاً "العراق بعد الحشد العسكري 2".

159 عدد مستشار للقوات الأميركية في العراق "عوامل عدم الاستقرار في العراق بأنها العنف الطائفي، القاعدة في العراق، والتمرد السني، والمتطرفين الشيعية، والتأثير الخارجي، والإجرام، وضعف مؤسسات الدولة"، دون أن يذكر الوجود الأميركي. محاضرة حضرتها مجموعة الأزمات، واشنطن دي سي، شباط/فبراير 2008.

□ المشكلة الثالثة هي تشظي المعارضة المسلحة، والذي يطرح تحديات إجرائية ولوجستية لأي مفاوضات محتملة. على حد تعبير مثقف على علاقة بالمسلحين:

المشكلة هي أن المقاومة ليست موحدة. في هذه الظروف، مع من ينبغي على الولايات المتحدة أن تتفاوض؟ بعض المجموعات دخلت في تحالفات، لكن حتى هذه تستطيع أن تتحدث باسمها فقط. يمكن للدول العربية أن تتوسط لكن هذه الدول لديها أجنداتها أيضاً. لا نستطيع أن نترك مصالح العراق تضع وسط هذا كله.¹⁷²

الخيار المنطقي يمكن أن يكون في أن تتحدث الولايات المتحدة إلى بعض المجموعات الرئيسية في مناطق معينة، وأن تشمل هذه المحادثات بالترتيب مجموعات إضافية. مطالب العرب السنة تدور بشكل عام حول مواضيع متشابهة، رغم الانقسامات؛ نهاية الاحتلال؛ الوصول المتساوي للخدمات الأساسية وإعادة الإعمار؛ ورفض ما يرونه الطبيعة الطائفية وغير العادلة للنظام السياسي القائم وإشراكهم في مؤسسات الدولة وأجهزة الأمن؛ والمحافظة على وحدة وسلامة العراق وانتمائه العربي. إن التصدي بجديه لهذه المشاكل يمكن أن يساعد على تخطي مشكلة افتقار المعارضة المسلحة إلى الوحدة وأن يجتذب القواعد الشعبية التي تؤيده. سنترك المجموعات المسلحة مع خيار إما أن تستمر في صراعها على مصالحها الضيقة – وبالتالي تستمر في خسارة الدعم الشعبي – أو أن توافق على الاشتراك في مفاوضات حقيقية وضمن بقائها في النظام السياسي بعد إصلاحه.

لقد فشلت العملية السياسية بشكل مطلق؛ إنها جسم مريض يبقيه الاحتلال حياً بواسطة الأجهزة الصناعية، لكن الحياة سنتركه أخيراً، ولا ينبغي أن يطول الانتظار طويلاً. تبدأ المشكلة بالأسس التي بنيت عليها العملية، مثل المحاصصة الطائفية والعرقية. لقد ألغى الاحتلال نظاماً كاملاً عندما تخلص من النظام السابق وكل مؤسساته. ولا ينبغي أن يصعب عليه القيام بذلك مرة أخرى.¹⁶⁸

نتيجة لذلك، تتخذ المجموعات المسلحة موقفاً غير واقعي مفاده أن العملية السياسية بأكملها ينبغي أن تبدأ من الصفر، متجاهلة اعتراضات الولايات المتحدة والمقاومة الأكيدة من تلك القوى العراقية التي استفادت من النظام القائم ولن تقبل مراجعة شاملة له، ومن منظورهم التبسيطي، ينبغي على الميليشيات الشيعية ببساطة أن تعود إلى إيران؛ والمعارضة التي كانت تقيم في الخارج في عهد صدام ينبغي أن تستأنف حياتها في المنفى؛ وينبغي أن يتم استدعاء الجيش السابق وأجهزة الأمن، كل ذلك كما لو أن شيئاً لم يحدث منذ عام 2003.¹⁶⁹ ويمضي المسلحون أبعد من ذلك حتى فيما يعتقدون أن الولايات المتحدة تستطيع فعله وستقوم بفعله:

إذا أرادت الولايات المتحدة حماية مصالحها في العراق وفي المنطقة بأسرها، فالأمر بسيط، عليها استعادة القوة العسكرية العراقية إلى مستوى إيران وتحت سيطرة حكومة غير طائفية. ثانياً، عليها حماية وحدة العراق إضافة إلى انتمائه إلى العالم العربي. هذه هي الطريقة الوحيدة لمواجهة النفوذ المتنامي لإيران.¹⁷⁰

رغم عدم وجود طريقة سهلة لجسر هذه الفجوة، فإن بإمكان كلا الطرفين تعديل رؤاهما. من ناحية، ينبغي على الولايات المتحدة أن تتوقف عن التصرف كما لو كانت العملية السياسية القائمة شرعية وتمثيلية تماماً، وتحتاج لبعض الإصلاحات فقط (تحقيق حفنة من المعايير)، وأن تقبل بدلاً من ذلك بالحاجة إلى تغييرات أكثر جوهرية لنظام يطغى عليه الفساد والطائفية، ويتميز بحكم الميليشيات إلى حد بعيد ونهب الموارد الوطنية.¹⁷¹ من ناحية ثانية، على المعارضة المسلحة أن تفهم أن العودة إلى نقطة الصفر ليست خياراً، وأن تفكر بدلاً من ذلك بصيغة سياسية أكثر عملية وإقناعاً. من شأن المحادثات الأولية، التي تستند إلى إمكانية انسحاب الولايات المتحدة في النهاية، أن تساعد الطرفين في إجراء هذه التكيفات الصعبة لكن الضرورية.

¹⁶⁸ اتصالات بالبريد الإلكتروني أجرتها مجموعة الأزمات مع مسؤول رفيع المستوى في هيئة علماء المسلمين؛ آذار/مارس 2008. قال متحدث باسم المجلس السياسي للمقاومة العراقية، "ننصح الأميركيين بالسيطرة على فرق الموت ومعالجة الاختلال في التوازن الطائفي في الحكومة وذلك بتشكيل حكومة تكنوقراط لتحل محل الحكومة الحالية". مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات، آذار/مارس 2008.

¹⁶⁹ مقابلات أجرتها مجموعة الأزمات مع ممثلين للمسلحين، أيلول/سبتمبر 2007 و آذار/مارس 2008.

¹⁷⁰ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم المعارضة المسلحة، آذار/مارس 2008.

¹⁷¹ أنظر تقرير مجموعة الأزمات، "بعد بيكر – هاملتون" ص. 2-6.

¹⁷² مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع مثقف محترم في أوساط المعارضة المسلحة، تموز/يوليو 2007. "هناك بضع مجموعات رئيسية، لكن لدينا الآن عدد كبير من المجموعات الصغيرة، بعضها محلي جداً – دون وجود في بغداد على سبيل المثال، وليس لديها اهتمام بما يحدث هناك. مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع متحدث باسم جماعة مسلحة، نيسان/أبريل 2007.

V. خاتمة

الولايات المتحدة لاعب جوهري وحاكم في هذا النزاع الإيديولوجي والمادي. وجودها العسكري هو الذي حفز المقاومة، ووفق بين مجموعات ليس بينها الكثير من القواسم المشتركة. أدت السياسات التي اتبعتها في البداية إلى تفاقم وتعزيز الانقسامات الطائفية والعرقية. واليوم تسهم تكتيكات فرق تسد التي تستعملها في رسم خطوط تماس وخصومات حيث أن هناك مجموعات (عشيرة معينة، مجموعة أو حزب سياسي) تستفيد من الولايات المتحدة، في حين لا تستفيد مجموعات أخرى. لاشك في أن أولئك الذين يشعرون بالإقصاء سيبحثون عن رعاة خارجيين آخرين.

في المحصلة، يتطلب تحقيق الاستقرار أن تعالج هذه الخصومات والمنافسات ليس من خلال العنف أو الاستمالة، بل من خلال مؤسسات الدولة الفعالة والمشروعة. وهذا سيستغرق وقتاً، غير أن التحرك المبدئي في ذلك الاتجاه يتطلب أن تدفع الولايات المتحدة باتجاه نظام سياسي تشميلي حقيقي بدلاً من المحافظة على نظام طائفي وفساد. كما نصف في التقرير المرافق، فإن هذا يعني إيجاد طرق – مثل الانتخابات المحلية والوطنية الجديدة، ومزيد من الضغوط على الحكومة العراقية؛ وتجمع محلي أوسع (باستثناء القاعدة في العراق) إضافة إلى مزيد من المشاركة المنطقية للحصول على إجماع وطني – لجمع العناصر المختلفة في البلاد. إحدى الخطوات التي ينبغي أن تتخذها الولايات المتحدة، ربما من خلال الأمم المتحدة، بالتفاوض مع ما تبقى من التمرد والذي لا يمكن هزيمته عسكرياً بل يمكن أن يعود إلى النشاط إذا تم تقويت هذه الفرصة وهي الفرصة الواعدة الأهم منذ عام 2003.

بغداد/استنبول/دمشق/بروكسل، 30 نيسان/أبريل 2008

كان لانقسام الطائفة السنية بعض الآثار الإيجابية الهامة. الأثر الأكثر بروزاً هو أنه بدد الإحساس الأحادي الكلي بهوية طائفية، وأحل محل خطر قيام حرب أهلية رئيسية واقع وجود عدد من الحروب الأهلية الأكثر قابلية للسيطرة. قد تكون هذه، على حد تعبير محلل عربي، "الخطوة الأولى الضرورية نحو تحقيق الاستقرار الأبعد مدى"¹⁷³. لكن، وكما يعترف المسؤولون الأميركيون، فإن هذه التغييرات يمكن أن تثبت أنها هشّة وعابرة. قد يصاب العناصر العشائريون والمسلحون السابقون بخيبة أمل وتنبدد أو هامهم جراء انعدام التقدم السياسي، والخطوات غير الكافية باتجاه التشميل الاقتصادي والاجتماعي وما يرون فيه هيمنة مستمرة لإيران وعملائها الشيعة.

بل إن المشكلة أعمق من ذلك. منذ الحرب بدأ هذا المجتمع، الذي كان يقع في الماضي تحت قمع شديد، يشهد ظهور جملة كبيرة من الآراء والمصالح الصريحة والمتصارعة بشدة. وهذه تتضمن مناظير دينية، وعشائرية وحداثيّة؛ وخلفيات حضرية وريفية؛ وطبقات اجتماعية مختلفة؛ معارضة من جهة وقبول من جهة أخرى للوجود الأميركي؛ وهويات عرقية وطائفية. في هذه البيئة، تصبح العشائر، والميليشيات، والمجموعات الأخرى ليست أكثر من أدوات للاستحواذ التسلطي على الخيرات. ثمة منافسة فوضوية وعنيفة على السلطة، والمناصب، والموارد، دون أية قواعد للعبة أو وسائل لفرض مثل هذه القواعد إن وجدت. ويرجح أن يستمر هذا الوضع طويلاً، مع مد وجزر في مستوى الصراع طبقاً لنشوء وزوال التوازنات المتقلبة للقوة.

¹⁷³ مقابلة أجرتها مجموعة الأزمات مع محلل عربي، واشنطن دي سي، آذار/مارس 2008.

ملحق أ

خارطة العراق

